وحال بينهما الموج

وحال بينهما الموج

ماهر حفني

رواية

رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٠٢٠/٢١٩٩٧

تدمك: ٥-٣٣-٦٧٩٨-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٢١

للنشر و التوزيع

الفؤاد للنشر التوزيع

برج سانت فاتيما، أمام جنينة مول، مدينة نصر

Alfouad_publishing@hotmail.com

Facebook.com/fouadpublishing

مراجعة لغوية: مريم عبد الجواد

غلاف: د. بولا وجيه

تنسيق داخلي: د. بولا وجيه

وحال بينهما الموج

ماهر حفني

• رواية •

الفؤاد للنشر والتوزيع

إهدائي الأول

إلى أول إنسانة عرفتها، وأول من أحببت، وآخر من حزنت لفقدانها.. حياتي...

عطر الهواء الذي أستنشقه، وروح المكان ونبضه...

إلى تلك الإنسانة التي من دونها سعادتي دائمًا منقوصة مهما بلغت..

إلى روح أمي الطاهرة....

•••

الفصل الأول

أخيرًا وصلت الحافلة إلى الميناء بعد يوم طويل وشاق، وما إن استقرت عجلاتها، وفُتح باب النزول حتى تدفَّق راكبوها يهبطون منها كماء علا وارتفع وراء سدٍّ ما كان له غير الانهيار.

يجرُّون أقدامًا مخدرة من طول الطريق الذي لم يدركوا كيف قطعوه، وكأن الزمن قد توقف بهم حيث تركوا الأهل والأحبة والذكريات، يشعرون وكأن أقدامهم قد ربطت بأثقال تربطهم بتلك الأرض التي تحمل بداخلها جذورهم التي تشدهم إليها، وكأن أجسادهم تتمرد عليهم ليستجيبوا لها؛ فيحاولون مرة بعد أخرى بأقدام ثقيلة وكأنهم استعاروها من مقاعد الحافلة؛ ليواصلوا بها ريثما يستعيدوا الشعور بأجسادهم مرة أخرى.

وسط هذا الزحام الشديد، وقف ناصر في شارع يعجُّ بالناس من كل أصقاع مصر، تدور عيناه في كل مكان، تقع على كل شيء في سرعة متلاحقة، سائلًا نفسه:

ـ مَنْ هؤلاء؟ مِنْ أين؟ وإلى أين؟

ثم لا يلبث أن يعود للواقع بعنف على صوت يناديه بحدة ليأخذ حقيبته.

رفع يديه ليتلقف حقيبته، وكأنه يدعو الله أن يهوِّن عليه هذا السفر؛ ليقطع دعاءه سقوط حقيبته من أعلى بشدة؛ ليتألم من أثر ذلك على ذراعيه كما تألمت قدماه في تلك الحافلة التي قضى فيها ساعات طويلة؛ ليشعر وكأن جسده قد تيبّس من ضيق المكان وقلة الحركة.

انحنى ليحمل حقيبته التي سقطت أرضًا بعد انفلاتها من بين يديه، وهو يكاد يشفق عليها مما تلاقيه معه؛ فهي الرفيق الذي يصاحبه من البيت ليحمل معه رائحة أمه التي ما يزال يشعر بها حوله، وكأنها تأبى إلا أن تبقى معه لترشده دائمًا لطريق العودة.

وقف على جانب الطريق باحثًا عن وجهته ممسكًا بأوراق سفره، غير آبه بمن يصدمه أو يدوس قدمه، فلم يكن يهمه سوى المحافظة على أوراقه التي أصبحت وكأنها جزء من جسده؛ فهي مستقبله الذي بات يحلم به ليل نهار، وهو لن يسمح بضياعها، فأوراقه دونها الموت.

وبينما الناس تموج في كل مكان كبحر غاضب في ليلة عاصفة، استوقف ناصر أحدهم ليدلّه على وجهته لإنهاء إجراءات سفره؛ ليأخذ بعد ذلك دوره في طابور طويل تراصت بجانبه طوابير أخرى عن شماله ويمينه، تتحرك بضعة سنتيمترات كل عدة دقائق؛ ليتحرك معها الواقفون بشكل آلي وكأنهم فقدوا الإحساس، وعيونهم ترقب بداية الطابور مع أمل يتجدد مع كل شخص

يغادره، ومع كل خطوة يخطوها كان ناصر يحمل متاعه حتى وصل إلى الموظف بعد جهد جهيد وتعب شديد؛ ليسأله عن أوراقه التي شقَّ عليه إخراجها من شدة حرصه عليها.

امتدت يد الموظف نحوه ليأخذ أوراقه غير عابئ بالنظر إليه، فقد كانت عيناه تلتهمان الأوراق أمامه في آلية، حتى أومأ إليه برأسه هاتفًا:

ـ اجلس حتى يُنادى عليك.

جلس ناصر أرضًا محتضنًا حقيبته، وقد استند برأسه إلى حائط قديم، أغمض عينيه للحظات بدت له دهرًا، شعر فيها وكأنه قشةٌ في مهبِّ الريح تُلقي بها أينما شاءت، فقد عاش غريبًا في وطنه، ونشبت الوحدة أظفارها في قلبه وهو بين أهله.

شعر وكأنه يرى أمه وقد انفلت من يدها ما تحمله من صحن الطعام، الذي أعدته للعشاء في وسط البيت؛ ليقع أرضًا وقد انكبَّ ما فيه بعد أن تعبت في إعداده، وقد تفطرت عيناها بكاءً وحزنًا على ولدها الذي ما اعتادت على فراقه؛ ليسرع إليها أخوته، وهي تردد:

ـ أخذ الشر وراح.

وكأن وقوعه قد أزاح عن كاهلها حملًا ثقيلًا، فكيف يهنأ لها دون ولدها، بكت وأبكت صغارها، هي مَنْ تشعر بالغربة وأنَّة الفراق.

مرَّ الوقت عليه ثقيلًا كالدهر حتى سمع اسمه، فانتفض من مكانه، لم يخرج صوته، وكأن أحباله الصوتية فارقته أيضًا، وحنجرته التي اعتادت على الكسل منذ الصباح لم يتحرك لها وترٌ.

رأى أوراقه تُقذف ناحيته في الهواء كطائر جريح يسقط من سمائه، فانحنى يلتقطها من بين أقدام الجموع، قابضًا عليها كأب يتشبث بابنه وسط الزحام خوفًا من ضياعه.

وما إن صعد سُلَّم الباخرة التي ستبحر بهم من شاطئ الدفء والأهل، وتشق لها طريقًا وسط المجهول بين أمواج البحر العاتية ومستقبل مجهول، ووسط هذا الزحام الرهيب، وهذه الحشود الكبيرة المتكدسة ما بين واقف يراقب الشاطئ، وجالس ينتظر الرحيل، ونائم هارب من الواقع، ما بين اثنين يتبادلان الحديث عن مغامرات سفرهم السابقة، وبين آخر يعتصره ألم الفراق للمرة الأولى، وما أنفقه من أجل تلك المرارة التي يعيشها.

يتحدث الجميع مع بعضهم البعض، وكأنهم يعرفون بعضهم البعض منذ سنوات طوال، فلم يكن يجمعهم فقط تلك الأرض التي غادروها تاركين وراءهم ذكرياتهم وأحلامهم، ولا تلك الباخرة التي ستحملهم عبر بحر متلاطم الأمواج، وإنما جمعتهم جميعًا غُصَّة الفراق، وآلام السفر، وأحزان يهابون مواجهتها.

وسط كل ذلك كان ناصر يرنو بنظره من سطح الباخرة، يبتسم لوجه مبتسم لم يعرفه، ويعبس تضامنًا مع وجه اعتراه الحزن وأرخى قناعه على صاحبه، مندهشًا بهذا العدد الكبير وذلك الزحام، تمتم قائلًا في نفسه:

ـ لم يبق في مصر إلا الأمهات والصغار.

مشى ناصر بخطوات متثاقلة، يبحث عن موضع يقبل بجسده المنهك، وأقدامه المتورّمة في ذلك الوقت المتأخر من ساعات الليل، حتى استقر بمكان مُدَّت فيه أجساد لم ينهكها السفر بقدر ما أنهكها الحنين والحرمان.

أسند رأسه وهو يجول بذاكرته في قريته الصغيرة، في بيوتها البسيطة التي جعلت من القش والحطب تاج يزين رؤوس معظم بيوتها.

تذكر سكونها مع أذان المغرب، ليس للصلاة فحسب وإنما إيذانًا لمبيت كل كائن يسكنها، إلا من حفيف الأشجار وهديل الطيور في أعشاشها، تناجي بعضها وتطمئن لعودتها سالمة.

تشخص عيناه وقد ارتسمت في مخيلته صورة أمه التي أجهدها تعبًا؛ لإقناعه برؤية تلك الفتاة التي لم يكن يعرف عنها سوى اسمها؛ لتكون شريكة دربه وصاحبة سفره، ما بين لوم لرفضه ويقين أنه اتخذ القرار الصحيح.

وبينما هو في شروده إذ بذلك الصوت ينطلق مدويًّا مصحوبًا بارتجاج شديد للباخرة؛ لينخلع على إثر ذلك قلبه، فقد بدأت الباخرة بالتحرك، فنظر وكأنما الأرض شقت خندقًا؛ لتبتلع الباخرة بمن عليها، بينما كانت تتحرر من قيودها

وسلاسلها التي تربطها بالشاطئ، وتسحب حبالها التي ترسي قوامها في الأعماق.

وكأنها كانت تتحرر من قيودها؛ لتغادر حاملة على متنها هؤلاء، وتبدأ رحلة الشدِّ والجذب، المد والجزر بينها وبين البحر وهي تطأ البحر وتمر من فوقه، وأمواجه تأبى أن تمر دون أن تعترضها مرة بموجة عالية وأخرى عاتية، وهي تصارعه وتكافح من أجل العبور بهؤلاء البسطاء.

تكافح وهي تحمل أحلامهم وأمانيهم وآمالهم، ووعودًا قطعوها على أنفسهم، تحمل أجسادهم وأغراضهم البائسة البالية، أما قلوبهم ما زالت لم تتحرر ولم تغادر ذلك الشاطئ.

وقتها شعر ناصر أن جوازات السفر تستخرج فقط للأجساد، أما القلوب والأرواح ليس لها جوازات سفر ولا بلد ولا حدود؛ فهي مثلها مثل الطيور تسكن أينما شاءت وتهاجر أينما شاءت، في أيِّ وقت شاءت، حسبما تحب وتهوى وتقتضيه فطرتها، ليس لأحد سلطان عليها إلا من أحبته وتعلقت بحبه، مكان كان أو حبيب تملَّك القلب واحتواه.

شعر وكأنه يرى أمه التي آوت إلى فراشها تستجدي النوم ألا يهجر عينيها، وتتوسل لحزنها أن يفارقها حتى يهدأ نبض قلبها المتسارع المخطوف، بعدما ألقت نظرة على أريكته التي فرَّق صانعها بين ألواحها كما تفرقت عن ولدها، تحسستها بيدها وجلست ببطء شديد؛ لتسمع أزيز حزنها لتشكي إليها مأساة

الفراق، وقد تغطت بفراش قديم مكون من مزيج من ملابس قديمة وأقمشة مختلفة الألوان، جمعته الأم بأحجام مختلفة ليغطي تلك الأريكة، التي كانت سريرًا لولدها في إحدى غرف البيت الاثنتين، وقد وضعت في إحدى جوانبها بجوار جولات القمح وبرميل الأرز الذين كانوا يشكلون محصول عام طويل يقتاتون منه ويبيعون بعضه، إنها حياتهم البسيطة.

نهض ناصر ليعتلي سطح الباخرة وهي تبحر وتبتعد عن الشاطئ، شاطئ الأرض والوطن، شاطئ الأهل والأصدقاء والأحبة، إلى شاطئ الأمل والأماني وتحقيق الذات.

ووسط زحامها الشديد أراد أن يُلقي نظرة على الرصيف الذي تغادره، فاصطف بجوار الآخرين ممن يتشبثون بسور الباخرة الحديدي، والكل يوجه نظره نحو الرصيف؛ لترصد أعينهم كل حركة على الشاطئ، ما بين قاطرة تتحرك أو رافعة أمتعة مسرعة، أو موظفون أتموا عملهم وأنهوا مهمتهم برحيله هو ومن معه عن بلادهم..

كانت الساعة تمام الثانية من صباح الثالث عشر من رجب لعام ١٤٢٣هجرية، عشرون من شهر سبتمبر ٢٠٠٢ من السنة الميلادية.

وفي تلك الأثناء وقعت عينايّ ناصر على لوحة كبيرة كُتب عليها اسم شركة الملاحة(السَّلام)، وكأنهم أرادوا أن يطمئنوا المسافرين أنهم في أمان.

كان القمر جميلًا وضّاحًا في كَبد السماء، وقد أخفى كل النجوم حوله من شدة توهُّجه، يبدو أنه سيكون الوحيد الذي يرافقه في رحلته تلك.

وقف ناصر ليتأمله فقد كان يرى فيه كل شيء، فتارة يرى فيه بيته الصغير فيراه وجيرانه من حوله، وتارة يرى فيه أحلامه التي ما زالت تدور في رأسه ولم تُكتب حتى على ورق، وتارة أخرى يرى فيه نفسه فارسًا يمتطي فرسًا أدهم قويًّا يضرب الأرض بأرجله القوية، إيذانًا بانطلاقة تحدٍ يقطع خلالها السهول والوديان، ويعبر الجبال متحديًا كل عوامل الزمن والطبيعة، حرارة شمسها الحارقة وأرضها القاحلة المقفرة، حتى بحارها الهائجة.

إن السفر أحيانًا ليس مجرد أن يرحل الإنسان من مكان لآخر، فلربما تسافر وأنت في مكانك، تسافر بنظرك إلى القمر، ومن هناك يحملك خيالك لما هو أبعد من القمر، يطوف بك في عالم قد عشت فيه في الماضي، أو تتمنى الحياة فيه يومًا.

السفر رحلة تنطلق بها أحيانًا بخيالاتك مع من تحب وتهوى، قد تصل به إلى القمر وتجوب به في الفضاء الرحب دون عناء، سفينتك هي الحب وشراعك الأمل وجناحيك العشق وحدودك كل الوجود، هي رحلة ذهاب لا تتمنى العودة منها، تتمنى لو تعيش فيها طيلة العمر، فكل لحظة فيها حياة وكل ثانية فيها أمل.

وبينما هو كذلك شعر بالجوع الشديد الذي لم يفكر فيه طيلة اليوم وحتى الآن مع الساعات المتأخرة من الليل، أراد أن يأكل شيئًا، لكن كيف يُخرج طعامه من

حقيبته البائسة المخيطة من جميع جوانبها، هذه الحقيبة التي وضعت له فيها أمه بعضًا من الطعام البسيط؛ ليتزود به في الطريق، فقد وضعت بها قطعًا من الخبز الذي صنعته بيديها، وبعضًا من الجبن القديم، والمش الذي وضعته في برطمان من البلاستيك أحكمت غلقه بيديها، وكأنه طرد بريديٌّ لا يُفتح ويُسلَّم فقط لصاحبه يدًا بيد.

وقعت عيناه على الكثيرين وهم يتناولون أطعمتهم التي حملوها معهم من أيادي أمهاتهم وزوجاتهم اللاتي سهرن على إعدادها وطهيها، وبجانبه كان ذلك الشاب حسن المنظر في هندام جميل، يرتدي بنطالًا أنيقًا وقميصًا ألوانه زاهية مرتبة، لديه حقيبة سوداء اللون، كان يأكل شطيرة بخبز خفيف لم يره من قبل، وما إن بلغ الخبز فمه حتى التقت عينه بعين ناصر الذي أرخى عينيه خجلًا، فنزلت يد الشاب لتتجه نحوه ويعرض عليه أن يشاركه الطعام، ولكنه بخجل شديد رفض بنبرة متلعثمة بعد أن رمقه بنظرة خجل أخرى، ألحَّ عليه الشاب ولكنه لم يستجب، إنها روح المصري الطيب الأصيل الذي نشأ على ترابها الدافئ ومياهها العذبة.

دار بينهما حديث علم ناصر من خلاله أنه مهندس في إحدى الشركات يعمل فيها منذ عدة سنوات، وأنه مستقر خارج مصر مع أسرته، زوجته الطبيبة وأبنائه الصغار، وقد طلبت منه شركته قطع إجازته والحضور لأمور هامة بالشركة، فلم يجد حجزًا للطيران في موعد قريب، فآثر ركوب البحر وكانت المرة الأولى.

انقطع الحديث الذي لم يَطُل بينهما، فعاد ناصر ليرمق القمر بنظرة، وقد نسي جوعه طيلة هذا الوقت، فوضع رأسه على متاعه ومنشفة اصطحبها من البيت يشمُّ فيها رائحة كل شيء، بيته ويد أمه، وامتدت رجلاه قليلًا وبحذر ليزاحم أرجلًا أخرى تأخذ نفس وضعه في النوم.

حدَّق في القمر المكتمل، وقد لامست وجهه نسمات الهواء الباردة، ممزوجة برائحة البحر ورذاذ الماء المتناثر من ارتطام الموج بجانبيّ الباخرة، وهي تتمايل مرة ناحية اليمين وأخرى ناحية الشمال في حركات خفيفة، كفتاة تتراقص فرحًا يوم عرسها، يمازحها الموج ويلامسها ويلاطفها بالتصفيق كحضورٍ في حفلِ زفاف، وقد افترشت من البحر مسرحًا كبيرًا تستعرض عليه رقصاتها وتمايلها كيفما تشاء على أنغام أمواجه، عازفة بذلك سيمفونية لا تود انتهائها.

يُذكره ذلك بالصعود أعلى أشجار النخيل؛ ليقطف رطبها الجميل، وتداعبه نسمات الهواء الهادئة، تُرى أهي ترقص وتتمايل طربًا وفرحًا بهذه الأجواء الساحرة، أم أن تمايلها حزنًا وألمًا وأنينًا بما تحمله من أجساد مُحملة وأغراض مُكدسة وعربات مصفوفة وحاويات متلاحمة؟!!

لم يعرف النوم طريقًا إلى عينيها، فلم يغمض جفنها لحظة، قامت الأم تشقُّ الليل شقًّا في همة عالية ونشاط اعتادت عليه، ولكن هذه المرة كانت أكثر حركة

وأسرع، تُرى هل كان هروبًا مما يسكنها من حزن وألم؟!! أم لتصرف ذهنها المشغول لأي شيء يهدئ من نفير عقلها الذي أضناه التفكير؟!

اتجهت في ظلمة الليل حاملة في يدها ذلك المصباح العتيق الذي يعمل بالجاز، يحترق بداخله شريط من القطن؛ لتشق بها ظلمة الدار خارج غرفتها، كان دخان لمبتها كثيفًا يتراقص راسمًا وراءه لوحة من الدخان المتعرِّج حيث تمشي وتمرّ، وكأنه يرسم لها طريقًا لمستقبل لا يعلمه إلا الله.

توضأت من إناء فخاريٍّ كبير بعد أن أخدت الماء بإناء أصغر، وقفت على سجادتها البسيطة، وأدت ركعتين في جوف الليل في خشوع وصوت مختنق متنهنه، ترتجف أوصالها من شدة البكاء؛ لفراق ولدها الأكبر، بينما إخوته ما زالوا صغارًا، ومن قبله فقدان زوجها الذي كان سندًا لها حتى في أشد لحظات مرضه، تدعو بكل جوارحها أن ترى ولدها سالمًا غانمًا معافى.

∾

بعد أن غطت العيون في نوم عميق على صوت الأمواج ونسيم البحر، حتى تسللت يد ناصر إلى حقيبته بعد أن فك وثاقها المربوط، وأخرج منها طعامه فقد بلغ الجوع منه مبلغه، كان يأكل بلا وعي يحبس صرير أسنانه حتى لا يسمعه من حوله وإن كانوا نيامًا.

وبعد أن سد رمقه بتلك اللقيمات، وقف وسط هذه الأجساد وكأنه في ساحة حرب، وقد قُضِيَ الجميع ولم ينج غيره، وأخذ خطوات حذرة نحو السياج

الحديدي الذي يلتف حول الباخرة، فأمسك بالسياج الحديدي الذي اكتسب برودته من ملامسة نسمات الهواء ورذاذ الماء، رمق البحر بنظرة عميقة وتطلع إلى تلك الأمواج المتلاطمة المتزايدة في الارتفاع، حيث أرسل القمر أنواره المتلألئة؛ لتعكس في عينيه جمال هذا المنظر الذي يشبه سلاسل الذهب، في حين كان الجانب الذي لا يلامسه ضوء القمر أثناء ارتفاعه معتمًا مخيفًا.

تغيرت ملامح ومشاهد البحر في عينيه بسبب تركيزه العميق، نور بهيج للقمر، وعتمة داكنة مخيفة للبحر، ورذاذ متطاير للموج، ونسمات للهواء ورائحة ذكية للمياه، وحركات راقصة للباخرة وهو يدور في أنحائها الأربع، والمشهد يتكرر في كل جانب، مما جعله يشعر بدوار وقد انتابه صداع في رأسه، فاختلطت عليه كل المشاهد وتلك المناظر، فآثر العودة إلى حيث كان، تاركًا جسده يرتطم بالأرض، وكأن قانونَ الجاذبية قد تضاعف، وقد أرسل إلى القمر نظرة طويلة قبل أن يغمض عيناه وهو يرى من حوله كُثر، لا يدري أهو جالس أم مستلقٍ؟! وكأن رأسه قد زاد المكان ازدحامًا.

مرت الساعات طويلة وكأنها أيام لم تشرق لها شمس؛ لتضع حدًا لهذا الرحيل، حتى استعاد تركيزه بعد هذا الدوار الذى انتابه، فاتَّجه نحو السلم الذي يقود لداخل الباخرة بعد أن حدَّد مكانه جيدًا للعودة إلى مكانه مرة أخرى، ونزل درجات السُّلَّم العالية، وكان السُّلّم بشكل عمودي تقريبًا يرهق في صعوده، أما نزوله فقد كان أقل تعبًا، حتى وجد نفسه في ممرٍّ ضيق طويل، فمشى حتى

نهاية الممرّ؛ ليجد أُممًا أخرى من الناس المتكدِّسة في شبه ساحة واسعة فيها محل ملابس ومطعم وكافتيريا، وقف قليلًا ليجد آخرين يأتون من ممر آخر، فمشى وسط الزحام مع الممر، وأثناء سيره سمع أذان الفجر يأتي بصوت ضعيف من مكبر صغير للصوت مُعلقًا على جدار الممر، أكمل مسيرته بحثًا عن مكان للوضوء، حيث رأى الناس يشمّرون عن سواعدهم للوضوء؛ فوقف في زحام شديد حتى أصبح على طهارة، ثم رجع ووجد الناس يصلّون في مكان ضيق، حاول أن يجد موضعًا لقدميه في صفِّ الصلاة باتجاه مسير الباخرة، حيث اتّجاه مكة على حد علمهم.

ஃ

كانت الأم بعد صلاتها تسبق الطيور في إنهاء أعمالها، تملأ أواني البيت من مصبِّ القرية الوحيد، وتحملها على رأسها، ثم تغسل ملابسهم قبل تزاحم نساء القرية، وقبل أن يكشف الفجر عن وجهه الجميل، وفي حركة دؤوبة، وقبل أن تشرق الشمس تصنع الخبز الذي يزكي الأنوف في الفرن الذي تفننت في بنائه وطيه وقبوه؛ إذ جعلت من الطين حبرًا ترسم به لوحتها البديعة، ومن أصابعها المرهقة إزميلًا تنحت به صرحها الصغير الذي يمرُّ به كل طعام تشتهيه النفس، وما إن تنتهي حتى تجمع صغارها على تلك الطبلية الخشبية، يلتفون حولها كحلقة للقرآن؛ ليتناولوا طعامهم.

كل هذا ولم يبدأ عملها الجاد بعد، وكأن ما قامت به هو مجرد تمارين صباحية قبل بداية عملها في الأرض حتى مغيب الشمس، وقد اختطفت من وسط النهار قليلًا من الوقت تتفقد فيه أولادها، وكل ذلك مقابل أجر زهيد يعينها على صعوبة العيش وبؤس الحياة.

من أين لها تلك الإرادة، وهذه المثابرة وهذا الصبر العجيب، وهذه القوة الهائلة التي تأبى عليها حتى الجلوس، أو أخذ قسط ولو بسيط من الراحة، إنها القوة الحقيقية التي يحملها كل إنسان بداخله فلا يراها، وما يشعر بها إلا من يبحث عنها؛ فيكتشف نفسه وما تحمله من قوة وإرادة أودعها الله في النفس الإنسانية؛ لتسبر أغوار تلك الحياة الشاقة تلوّح لها من بعيد ببارقة الأمل التي تحيا به لتضيء عتمة الدَّرب الموحش، وتعطيها القدرة على مواصلة الطريق وتخطي الصعاب.

فرغ من صلاته، وقد وقعت عيناه على رجل مُسنٍّ قد بلغ من الكِبَرِ عِتيًّا، بشعره الأبيض ووجهه الشاحب، يرتدي جلبابًا واسع الأكمام والرقبة، يظهر منه عروق رقبته مفصَّلة وكأنها أمصالٌ تُبقيه على قيد الحياة. تُرى هل دفعته ظروف الحياة ومسئولياتها إلى السفر والغربة في مثل هذه السن، وهل بقي من العمر ما يتيح لذلك العجوز الرَّاحة يومًا في تلك الحياة قبل أن يرحل قطار العمر؟!

سأل نفسه تُرى إذا كان المستقبل والحلم والأماني وراء هذا البحر دافعًا له أن يعبره ويسعى لتحقيق أحلامه وأحلام أسرته الصغيرة التي بنت آمالها عليه،

فماذا عساه أن يفعل هذا المسنّ؟! وعن ماذا يبحث؟ وما الذي يتمناه في هذا العمر؟ وأين ذهب عمره الماضي وفيما قضاه؟ وأي أمل ينتظره؟ أم هو صديق لهذا البحر وتلك الباخرة، مما جعله يجلس مطمئنًا غير عابئ بوصولها في أي وقت؟ ولماذا لا يحقق الإنسان ذاته بما يمتلكه فحسب؟ أم إنها تلك الحياة التي تفرض علينا تلك الغربة الدائمة التي لا تنتهي حتى ينتهي العمر؟ وإن كانت أرضك التي أنبتتك لم تحتويك لتحقيق أحلامك، فماذا عساه أن تعطيك إياه أرضًا ليست بأرضك وعالمًا ليس بعالمك؟!

مشى بخطوات بطيئة في ممرات أخرى يبحث عن نفسه وسط هؤلاء، يحدِّق في وجوههم، الطريقة التي يتحدثون بها، إشارات أيديهم، نظراتهم، شعر بأن كلًّا منهم يحمل بداخله عالمًا وحده، قصة لا يعلمها سواه، ألم لا يشعر به غيره، وأحلام لا يراها غيره، وحبال ممدودة غير مرئية تشدُّ كلًّا منهم إلى حيث ينتمي، وكأنها دليله حتى لا يتوه في أرض الغربة.

صعد مرة أخرى إلى السطح، وقد بدأ الصبح يتنفس بنسماته الهادئة الرطبة الباردة، فجلس في مكانه وقد غَطَّت عيناه في النوم وهو يسمع همهمات من حوله وكأنه يحلم بالوصول، لم يطل نومه فقد لفحته الشمس التي أرسلت أشعتها الذهبية على كلِّ وجه نائم لتوقظه، وكلُّ متيقظٍ لترسل له صباحها الجميل، وعلى وجه البحر؛ لتضفي ذلك المنظر الرائع لأشعتها الذهبية وهي تُلاعب موج

البحر في أجواء ساحرة. ما هذه الرحلة التي قضينا فيها الليل، وصاحبنا فيها القمر والشمس التي أشرقت، وما زلنا في عرض البحر؟!!

أرخى منشفته على رأسه ووجهه وحاول النوم مرة أخرى، فاستغرق في نوم عميق، ولم يشعر أبدًا بمن حوله، وكأن الصباح والشمس قد أرسلا له رسالة طمأنينة بأن يهنأ في نومه. مرت ساعات قليلة ليوقظه من حوله بفرحة عارمة، وهم يتحركون جميعًا في كل اتجاه بحركة عشوائية، منهم من يحمل حقائبه على أكتافه أو متاعه بين يديه، وما إن نظر من بعيد حتى لمح الشاطئ، فلمعت عيناه النائمة التي يكاد يفتحها فلا يستطيع مقاومة أشعة الشمس، وتهلّل قلبه فرحًا، وأومأ برأسه مؤكدًا لنفسه.

لقد وصل...

التقطت الباخرة أنفاسها أخيرًا قبل أن تصل إلى الشاطئ بقليل، حيث يتم استدارتها بواسطة لانشات صغيرة تجعل مقدمتها ناحية البحر، ثم تدفعها ببطء شديد ناحية الشاطئ، مثل أب يسلّم بيده ابنته العروس ليد عريسها الذي انتظرها طويلًا. أخيرًا عانقت الباخرة الشاطئ كحبيب طال انتظاره شقَّ عليه السفر، والوصول إلى من أحب.

اندفعت الجموع نحو سلالم النزول الضيقة التي لا تكاد تتسع لشخص واحد كأمواج البحر الهادرة التي تتدافع، وكأن الموج قد نقل إليهم خاصيته في الاندفاع، فاندسَّ ناصر وسط الجموع التي سحبته معها للشاطئ؛ ليُنهي

إجراءات الدخول، ويغادر الميناء لتقلّه حافلة أخرى بعد أن تأكد من وجهته، وأن رحلته قد تطول عن يوم آخر، ثلاثة أيام خارج الزمن ما بين عجلات تحمله، وأمواج تتقاذفه وزحام يدفعه، جسد منهك، وعينان غارت إلى الداخل ووجه شاحب.

لكنه وصل...

ارتفع صوت أم ناصر وهي تلبي نداء إحدى جارتها بصوت متهدِّج، وترفع ظهرها عُنْوَة من شدة ما بها من تعب، وقد أخذت تخطو مسرعة نحو جارتها، وظهرها محنيّ قليلًا، فلم يستقم قوامها بعد انحنائه المستمر في ذلك العمل الشاق، متسائلة في لهفة؛ لتخبرها بأن ابنتها اعتراها المرض، وتنتفض من حرارة أصابتها، وتئن وتبكي، ولم يعرف الطعام أو الشراب طريقًا إلى جوفها منذ أن تركتها في الصباح مع جارتها.

ألقت ما بيدها وهرولت ناحية البيت، لم تكن المسافة قليلة، حافية القدمين تمشي على جسور الأرض اليابسة كالفَخَّار المتكسِّر، فليس هناك طريق غيره تسلكه إلى بيتها من هنا، وهي تتمتم بشفتيها، داعية الله أن يحفظ لها ابنتها.

وما إن وصلت البيت حتى التقطت ابنتها في أحضانها بلهفة بالغة؛ لتسحب يدها الخشنة على جبينها المتوهّج من شدة حرارتها، تُرى أأرادت أن تلطِّف بيدها من حرارتها المتأججة، أم تزيد عليها الألم من يدها اليابسة المتشققة وعرقها المتصبِّب؟

الفصل الثاني

استقلَّ ناصر حافلة كبيرة تحمل اللون الذهبيَّ اللامع، تشبه فندقًا صغيرًا لكنه متحرك على عجلات، صعد إليها بعد أن تأكد من وجهته، وبعد أن أودع حقيبته في باطن الحافلة، وقد علم أن رحلته قد تستغرق باقي اليوم كاملًا مع الليل حيث وصوله مع الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، جلس ببطء شديد على أحد مقاعد الحافلة المريحة، وقد أخذ يتحسَّسه وكأنه يستأذنه للجلوس، خشية أن يؤلمه من روعة وأناقة المقعد عكس ما لقاه طوال رحلته، نظر في كل دواخلها المرتبة، ستائرها الحمراء والإنارة الخافتة وشاشة التلفزيون الصغيرة، جو يعزلك عن خارجها تمامًا، وقد أرخى عليها الهدوء والهواء البارد، على عكس خارجها وجوها الرَّطب الذي يدفعك للاسترخاء، وأخذ كلُّ راكب مقعده، لكن دون زحام ولا ضجيج ولا تدافع، حتى استوفت الحافلة ركابها لتنطلق بهم، وتفتح حافلة أخرى أبوابها لتستقبل ركابها بنفس الرَّتابة والنظام.

وبعد أن تحركت الحافلة بقليل، غطت عيناه في نوم عميق، لم يستيقظ منه إلا على صوت هادئ يوقظه بعد تحرّك الحافلة بساعتين، حيث كانت الساعة

الواحدة وعشرين دقيقة ظهرًا، حيث نزل الجميع من الحافلة في هدوء إلى استراحة على الطريق المُعبَّد وسط تلك الصحاري، فأدار ناصر نظره في كل اتجاه من تلك الاستراحة التي كانت وحيدة وسط هذه الصحراء، وكأنها نبتت من عدم، مشى في اتجاه رفاقه في الرحلة حيث اتجاه المسجد الصغير؛ ليؤدي معهم صلاة الظهر والعصر جمعًا وقصرًا كما علم ممن معه، ليتوجه بعدها خلفهم حيث مطعم الاستراحة، وهم يطلبون ما يودُّون تناوله.

على يسار الباب أثناء دخولهم إلى المطعم سأل رجلًا لون بشرته يميل إلى الحُمْرة، يغطيه شارب كبير بلون بني، توحي ملامحه أنه ليس من أصول عربية، تبيَّن له فيما بعد أنه من أصول تركية، عدَّد عليه الرجل ما لديهم من مأكولات وأسعارها، رغم أنها موضحة في لوحة زرقاء مكتوب عليها باللون الأبيض، فأشار بيده شاكرًا له، ولم ينطق بكلمة رغم تحرك شفتيه، ثم أخد خطوة صغيرة للخلف واستدار.

خرج بعد أن مسحت عيونه المكان بنظرة خفية، وتوجه نحو الحافلة، وانتظر قليلًا حتى أتى السائق الذي كان قصير القامة يحمل بشرة سمراء، شعره أسود كثيف، يرتدي قميصًا أبيض عليه شعار شركة النقل من أصول أسيوية، فطلب منه أن يفتح له الحافلة؛ ليأخذ شيئًا من حقيبته.

وافق السائق ولكن بتذمُّر شديد، قائلًا:

ـ كان يجب عليك أن تأخذ ما يخصك قبل ركوبك الحافلة.

هكذا قال السائق الذي تكلم بطريقة سريعة، وكلمات غير مفهومة بها حروف عربية، ولكنها ليست عربية على الإطلاق، ولكن ناصر فهمه فقط من إشارته وإيماءة عيونه ورأسه، قبل أن يفتح له الحافلة ليأخذ ناصر من حقيبته خبزًا وجبنًا وثمار الطماطم، ويتوارى عن الأعين حتى يأكلها دون أن يراه أحد.

تحركت الحافلة مرة أخرى بعد أن انتهت الاستراحة وتجمَّع الرُّكاب بها مرة أخرى، كان ناصر يجلس على مقعد في منتصف الحافلة ناحية اليسار، وقد رفع الستارة الحمراء، وأطلق نظره في هذه الصحراء عبر النافذة التي تحيل بينه وبين لهيب مستعرّ من حرارة الشمس الحارقة، والحافلة تقطع المسافات الطويلة دون توقف، لم يرَ غير هذا المنظر، صحراء قاحلة ومُقْفِرَة على امتداد البصر، لا يسكنها أحد، وليس بها زرع أو ماء أو حتى حيوان ولو صدفة.

مرت الساعات الطوال وهو على نفس حاله، يطلق ناظريه على امتدادها، قائلًا لنفسه:

ـ ماذا عساها أن تعطيني تلك الصحراء؟!! ماذا بها حتى أتيت إليها؟ كيف يعيش أهلها؟ ثم أين هم؟!! أَمِنَ المعقول أن أترك أرض النيل والماء العذب، أرض الأشجار والنخيل والورود والزروع، جنة الله في أرضه، هبة النيل كما وصفت أرضها، تلك التي كُرِّمت بذكرها في القرآن صريحة باسمها مرات ومرات، ألم أجد فيها دفئًا تحت سمائها، وفرشًا على ثراها الطيب الرطب، وشرابًا يروي ظمأي من نيلها السلسبيل.

كان يشعر بأنه مُقبل على الكثير من المصاعب، يستشعر ألمًا وغربة مميتة تنتظره في نهاية هذا الطريق الذي لا يعرف نهايته، وإن كان يعيشها منذ أن خطى بقدميه عتبة بيته البسيط، ويداه تنسلت من أيادي إخوته، كما تنسلخ الروح من جسد مزقه الشوق والحنين وهو مازال في طريقه، خطر بباله كلمات أمه التي ما زال صوتها يتردد في أذنيه:

ـ يا بني أنا لم أطلب منك الارتباط بهذه الفتاة الآن، كل ما أردته وطلبته منك أن تراها فقط، وإن حدث ارتياح بينكما وقتها، تعرف ويعرف أهلها أنها أصبحت لك، حتى وإن تأخرت فأنت تعلم أن في مجتمعنا الريفي الارتباط يكون بكلمة من أهل العريس.

ولكنه رفض حتى مبدأ الارتباط أو التعرف بهذه الفتاة، كان وكأنه يلوم نفسه:

ـ لماذا لم أرها؟ وماذا كنت سأخسر لو رأيتها؟ أنا أعرف بيتها والطريق إليه، لماذا لم أذهب؟ وإن توافقنا كان خير وإن لم يحدث فما خسرت شيئًا، وكيف أخسر وهي جميلة؟ أهي جميلة حقًا كما قالت أمي ووصفتها بحيائها وهدوئها وصوتها العذب الذي لا تكاد تسمعه من خجلها؟!!

أيا مَنْ لم ترها عيني
أكنتِ تعلمين قدومي؟
لم تسُقْني إليكِ قدمي..
فأراكِ قمرًا في عيوني..
تمنَّى القلب أن يراكِ...
وتطمئن في العقل ظنوني...

للمرة الثالثة تشرق الشمس في رحلته الطويلة الممتدة التي أوشكت على الانتهاء، وها هي قبلته حيث أراد، نادى السائق في مكبِّر الصوت معلنًا عن محطة نزوله، لملم ناصر أعضاء جسده المتفرقة التي اصطفت كي يقف، فتح السائق جانب الحافلة ليمد يده ويأخذ حقائبه، وقد غادرت الحافلة، بينما هو يقف وحيدًا في هذه الساحة الخالية من كل شيء أمام فندق قديم ظهر على واجهته عوامل الزمن وفعل الطبيعة.

كانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية، وكأنها تحاول أن تؤنس وحدته حيث لا أحد، وقد لاحت في الأفق سيارة فارهة بيضاء عالية، قطع هدير محركها ذلك السكون مسرعة نحوه؛ لتتوقف ويترجَّل منها رجل بدين بعض الشيء، ليس بالطويل، يميل إلى القِصر، وجهه ممتلئ، وأوداجه منتفخة بشارب أسود كثيف، يرتدي ثوبًا أبيض ناصع البياض، يدفع الثوب كرشه للأمام دفعًا، والرجل

يخطو خطوات نحوه، ويمد يده الناعمة المترهّلة؛ ليسلم عليه بيد مرتخية وأصابع باردة، قائلًا:

ـ حمدًا لله على السلامة.

قالها ثم أشار ناحية باب سيارته ليستقلها ناصر معه، فحمل ناصر حقيبته، وسارع الرجل بفتح خلفية سيارته؛ ليضع أعباء سفره التي عانت الأمرَّين معه من حمل وإلقاء، وما هي إلا دقائق قليلة حتى وصل إلى بيت منخفض الارتفاع، يكاد رأسه يلامس أعلى الباب وهو يدلف إليه وراء الرجل، الذي عرّفه على أناس من بلاد مختلفة، كانوا ثلاثة يسكنون غرفة محكومة ضيقة، وكان هو رابعهم إلى حين.

بين ترحيب حارّ وترحيب بارد نفض كل متعلقاته حيث أشاروا عليه، غسل إرهاق تلك الأيام عن جسده، ثم أكل ما يسدُّ رَمَقُه وما فقده من جسمه، ثم استلقى على الفراش، وما لبث أن غابت عيناه عن أيِّ شيء يراه، وأذناه عن أيِّ شيء يسمعه، فقد انتقل إلى عالم طالما اشتاق إليه جسده؛ ليلقى من الراحة ما تليق بتعب تلك الأيام الماضية.

نعم، يقدِّر لنا الله ما نعيشه وما نلاقيه إما خيرًا يسعدنا ونهنأ به، أو شرًا يؤلمنا ويُتعس قلوبنا، تلك هي الحياة، تمضي دائمًا فلا تلتفت إليك إن عشت حزينًا أو كنت فَرِحًا، تتبدل الأدوار والأحوال تكون حزينًا ويفرح غيرك، أو تفرح أنت وغيرك يبكي، لا تصفو أبدًا لمخلوق، هي كالقارب توجهه إلى حيث تريد، إن

تركته يبحر حيث يأخذه الموج، ولربما أدرك أماكن الخطر والغرق، أو اصطدم بشاطئ صخري أو انحدر بشلال فهوى بك، أو سكن حيث أنت إن لم يعيره الموج انتباهًا، نعم إنها الحياة التي يرسمها كلٌّ منا في مخيلته، ويسعى لعيشها كما يتمنى ويحلم، ولكنها الأقدار تلك التي كُتبت علينا لنُسلم لها طائعين، كمحارب أضنته المعارك، وسرقت عمره ليستسلم لقدره طائعًا مختارًا بعد أن أدَّى رسالته.

دارت الأم حول بيت الفتاة مرات ومرات عديدة تتفقده رغم علمها بكل تفاصيله، فبيوت القرية قليلة ومعروفة لأهلها، تُدَقق النظر في أبوابه المغلقة دائمًا ونوافذه الموصدة، أرادت أن ترى تلك الفتاة وتتحقق منها، وكأن ولدها ترك لها أمانة لم يؤمّنها عليها، أو قطعة منه لم يرها. تعلُّق قلب الأم بها كان استشعارًا منها بتعلق قلب ولدها، ولكن كيف وهو لم يعرفها، فقط ذكرت اسمها أمامه تُرى أكان حبًا بالإنابة؟!

أخذت في ذلك أيامًا، فقد أصبح أهم هدف لها الآن هو الجمع بين قلب أحبته وتمنَّته، وقلب انخلع منها وغادرها، قلب موصد لم يلامسه نسيم الحب، ولم يستشعر الهوى، ولم يطرق الحب بابه، وقلب يتمرد على الحب ويرفضه، قلب قد انقلب على الهوى فأحكم بابه، وهبَّ النسيم إليه فلم يستنشقه.

ولكنها استجمعت شجاعتها ذات مرة، وكأنها أخذت إذنًا لم يعطه لها أحدًا ولا حتى ولدها، وطرقت باب البيت برفق وتردد قبل أن يُفتح الباب ويُفتح معه باب آخر، باب كان يخفي القمر وراءه، وأميرة خلفه ووردة نادية لم يتح للندى أن يتندى بعطرها.

لم يكد الباب يُفتح حتى تملَّك قلبها حب الفتاة التي كانت كالشمس التي تشُرق لتُحيي في القلوب آمالًا كادت أن تذبل وتزوي، لقد كانوا على حق، فقد كان جمالها أخضر بريئ كالزرع الأخضر الذي خرج للتو من برعمه، تحمل وجهًا وضاءً كإشراقات الصباح الأولى، وروحًا بريئة نقية كنسيم الفجر، وابتسامة تسلب القلب وتأسره.

كان الترحيب حارًا، فهي المعروفة المحبوبة الُمرحب بها في كل بيوت القرية، الأمينة الطيبة التي لم يظهر منها إلا ابتسامتها التي تشرق في وجهها، وتُخفي بها حزنًا عميقًا وآلامًا متراكمة، وأحداثًا مؤلمة ومعاناةً دائمة، يا لها من قوة أن تقنع من أمامك بسعادتك، وهو على يقين بحزن قلبك، فتجعله بين أمرين واقع يُصدقه، أو ظاهر يراه.

ولكن ما سرّ هذه الزيارة؟ فهي لم تعتد التردد على هذا البيت، يتساءلون في صمت، ويفكرون في خفاء بأعين متسائلة وشفاه مُرحبة، قطعت كل ذلك بعد تقديم عصير بارد تناولته من يد تلك الفتاة اليانعة؛ فحرارة الجو جعلتها تطلب ماءً يروي ظمأها، وإن شئت قل ليطمئن قلبها، وتسكن ظنونها، وتملِّي عيونها

ممن أرادتها زوجة لولدها، وقد طبعت ملامحها الرقيقة وهدوئها الحذر، وجمالها الهادئ، وقوامها الممشوق في عقلها، فهي أمانة ولدها.

حتى حين....

ல

كانت الصحراء مقفرة تتموج برياح جافة، يبعث صوت صفيرها الرهبة في القلوب، وهواء ساخن وأتربة متناثرة، ورمال مترنِّحة، حين وصل ناصر إلى حيث مكان عمله الذي جاء من أجله، كانت مزرعة حديثة العهد بالزراعة، لا يوجد بها إلا شجيرات أعوادها يابسة إلا من جذورها التي تقاوم الريح، وتقاوم الصحراء من أجل البقاء.

كانت هذه المزرعة مساحتها كبيرة وممتدة، يلفّها ساتر ترابي بارتفاع منخفض يسمى عند البدو وأهل الصحراء(العجم)، وذلك لتحديد مساحة ومحيط المزرعة، بها بئر قيد الإنشاء، وبها غرفة معدنية أُنشئت من الصاج الخفيف على شكل مستطيل، وقد أُعدت لإقامة من يعمل بالمزرعة، وبها حمام في زاوية المزرعة الأخرى يبعد عن الغرفة قرابة عشرين مترًا.

دار ناصر حول المزرعة بعيون شاخصة متسائلة، وقد انتابته الدهشة وتزاحمت في رأسه التساؤلات، حتى أنه لم يسمع صوت مشعل صاحب المزرعة الذي مر بجواره دون أن يسمعه، فقد شعر أن أذنيه قد صُمّت عن السمع، وعيناه قد توقفت عن مشاهدة أي شيء إلا تلك الصورة الثابتة في مخيلته.

تعرَّف على أبعاد المزرعة وجوانبها ومحتواها، وأبلغه مشعل أن هناك عامل من الهند قد تم استقدامه وهو في طريقه إلى هنا، كي يساعده في أعمال الزراعة، فكَّر ناصر مليًّا:

ـ كيف لي أن أجلس هنا وحدي وسط تلك الصحراء وهذا الصمت القاتل؟

دار برأسه وجسده دورة كاملة في كل النواحي والاتجاهات، ما من شيء يوقف نظره أو يرد بصره إليه، لا يرى غير صفرة الرمال، قطع مشعل تفكيره بصوت أجشّ، قائلًا:

ـ كأن المكان لم يعجبك.

تلعثم ناصر متجهًا إليه بعيون حائرة مرتبكة، وقد ظهرت على شفتيه ووجهه شبح ابتسامة حاولت جاهدة في الظهور، وهو يقول بنبرة غير المقتنع بها، يقول: بالعكس، فالمكان جميل جدًا، إن شاء الله سيتحول كل هذا إلى جنة عمَّا قريب.

أردف مشعل، وهو يثني عليه:

ـ إن أهل مصر أهل زراعة، وعلى يديك ستكون جنة يا ناصر، فالأرض تعطي لمن يدرك قيمتها ويعرفها، وليس هناك أفضل منكم أهل مصر في معرفة الأرض وخباياها وأسرارها.

هزَّ ناصر رأسه مؤكدًا ما يقول دون أن ينبث بشق كلمة، ولكنه قال محدثًا نفسه:

ـ أهل مصر أهل زراعة نعم، لكن مصر بها النيل ذلك الشريان الذي يمدها بالحياة؛ فيجري في أوردة تلك الأرض الحنونة الطيبة، هي أرض هينة ليِّنة،

ليست كهذه قاسية الوجهة صلبة المُحيَّا صلدة التعامل، ثم إن مصر ليست أرض زراعة وحسب؛ فهي الحضارة والعلم والتاريخ، هي أرض جمعت مقومات الحياة؛ لتصنع حضارة أنارت الدنيا وعلَّمت البشرية، أرض أعطت الكثير وما زالت تعطي، وتخبئ داخلها من الخير الكثير والكثير.

انطلقا الاثنان بالسيارة بعد أن تجوَّلا قليلًا في محيطها، تضربهما الشمس بسياطها الحارقة، والأرض بلهيبها المستعرّ، حتى وصلوا إلى الهجرة التي يسكنها، لم تكن بعيدة بالنسبة لأهل الأرض والصحاري، فستون كيلو مترًا لا تعني شيئًا لهم، وما إن وصلوا إلى ذلك البيت الكبير بأسواره العالية التي يعلوها تلك القطع المعدنية المزخرفة، وأضوائه الملتفّة بشكل منتظم، يشبه في تنظيمه المباني والمنشآت الإدارية، حملتهم أرجلهم إلى البوابة العملاقة المزينة بالقطع المعدنية ذات الألوان الفضية المزركشة؛ لينعطفوا ناحية اليمن، حيث تقدَّم مشعل بخطواته القصيرة المتلاحقة من ذلك الحوش الواسع والساحة الكبيرة إلى غرفة الاستقبال الفسيحة التي لا يقل عرضها عن العشرة أمتار، وطولها يقارب العشرين مترًا أو يزيد.

وقف ناصر للحظات على عتبتها بعد أن جال بنظره في أنحائها مندهشًا من روعة المنظر وجمال الترتيب، وقد غطت أرضيتها أفخم أنواع المفروشات والسجاد التي تكاد أن تغوص فيها القدم، وقد زُيِّن السقف بالنجف المبهج، والثُّريّات الملونة اللامعة، وعند باب الدخول كان هناك ذلك الموقد أو(المشب)

كما يطلقون عليه لعمل الشاي والقهوة العربية، يحيط الموقد من الجانبين أرففًا كثيرة ومصفوفة، بها أوانٍ وأباريق القهوة والشاي، كانت كثيرة ومتعددة الأشكال والأحجام، الفضية والصفراء فقط للزينة والتفاخر، فهي تدل على كرم الضيافة والترحيب، كان هذا هو المجلس الكبير الذى يسمونه(الديوانية).

دخل عامل هندي قدَّم صحنًا من الإستانليس مغطى، به تمر أسود من النوع الفاخر أمام ناصر الذي انزوى في مكان لا يكاد يتحرك، وقد طوى قدميه تحته حتى يكاد لا ينطق بحرف، كاتمًا أنفاسه خشية أن يسمعها هو من فرط دهشته مما يراه، كيف لتلك التحفة الفنية، والمبنى الفخم الأشبه بالقصر أو بمبنى وزاري في هيئته أن يتواجد في هذه الصحراء؟!

تقدَّم العامل الهندي ثانية يتحرك دون أن يتكلم حركة آلية، ثم قدّم لناصر فنجان من القهوة العربية التي تمر عليه للمرة الأولى في حياته التي لم يعرفها قط، أخذها منه ناصر وشربها لتصدمه مرارتها، والعامل واقف عند رأسه كي يسكب له فنجانًا آخر، ولكنه أبدى عدم رغبته في شرب فنجان آخر، إلا أن الهنديَّ ظل واقفًا عند رأسه، فإن كنت لا ترغب في شرب فنجان آخر من القهوة العربية؛ فلذلك عادات وتقاليد، فعليك أن تضع يدك كاملة فوق فوّهة الفنجان، أو أن تهزّ يدك بشكل ارتعاشة، فيعرف من يقدمها لك أنك لا تريد المزيد من القهوة العربية.

تراجع الهندي خطوة ونصف الخطوة من أمام ناصر ثم استدار ليخرج، وإذا بمشعل يدخل من باب المجلس؛ ليصبح هو والعامل وجهًا لوجه؛ فانتفض العامل وارتعدت أركانه بينما يحاول إفساح الطريق، فهوت الفناجين من يده، فَهَمَّ مسرعًا ليتلقفها من الأرض وإذا بدالة القهوة العربية تقع هي الأخرى على السجادة، وبسرعة البرق رفع مشعل العُقال الذي يضعه على رأسه، وأنهال ضربًا مبرحًا على العامل، مما أثار حفيظة ناصر الذي هبَّ واقفًا؛ ليساعد الهندي في حمل ما وقع منه، ولكن مشعل قطع عليه ما أراد فعله، ليجلس مكانه مرة أخرى بعد أن سبَّ العامل بأنواع السُّباب تقليلًا من شأنه وتحقيرًا.

جلس مشعل في المنتصف في واجهة المجلس مباشرة وقد مرَّت دقيقة أو كادت، حتى عاد العامل الهندي بدالة قهوة أخرى وفناجين جديدة مهرولًا إليه يصبُّ له القهوة وهو يرتعد مرتجفًا، ومشعل يتطلع من مكانه من منتصف مجلسه إلى الجهة اليسرى التي يجلس فيها ناصر، وقد وضع منتصف يده اليسرى على ركبته التي ثناها؛ لتحمل يده الممدودة وبها سيجارة لم يشعلها بعد بين أصابعه، بينما يده اليمنى تتكئ على وسادة عالية من الإسفنج المضغوط، مكّسوة بذلك المخمل الفاخر فاقع اللون والمزركش كباقي المجلس، إلا أنها مميزة بكبر حجمها لوقوعها في واجهة الديوانية، ثم قال بعد أن التفت إليه نصف التفاتة إلا قليلًا، وقد أخذت السيجارة نصف رؤيته، وأردف قائلًا دون ذكر اسم ناصر:

ـ ستكون إقامتك الدائمة هناك في المزرعة، وكل ما تحتاجه من طعام وشراب سيكون عندك، أريد عملًا جادًّا ودؤوبًا، أريد لهذه المزرعة أن تخضرّ، وتزدهر بكل أنواع الزروع التي تتاح فيها. والآن عليك الإقامة هذه الليلة في غرفة العامل الهندي حتى الصباح، ريثما نرتب لك ما تحتاجه.

في هذه الليلة لم يتسلل النوم إلى جفنيّ ناصر، كان الهندي ينام على الأرض على قطعة إسفنجية بحجم السرير، ومن حوله ملابسه المتناثرة وزجاجات مياه فارغة، وأخرى نصف ممتلئة، وأخرى ممتلئة وبعض أكياس من الخبز وبعض المعلبات، كانت الغرفة وكأنها ساحة عراك دار بين شخصين، إلا أنها باردة لوجود جهاز تبريد الهواء بداخلها.

أذَّن الفجر، كان صوت الأذان يأتي من مسجد قريب، فهو يكاد يسمع التكبير، حتى انتهى الأذان فظن أنها الإقامة، فقام مسرعًا ليتوضأ وهو يتحسس الطريق الذي لا يعرفه، حتى خرج فلفحت وجهه نسمات الهواء الساخنة، نعم إنه هواء الصحراء.

كانت عيون مَن في المسجد مصوبة نحوه؛ لأنه الغريب في هذه الهجرة، فمكث في المسجد بعد الصلاة يقلّب في صفحات أحد المصاحف التي تراصّت بشكل جميل بطريقة عشوائية حتى استقرت عيناه على الآية الكريمة.

" قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا" {التوبة:٥١}

لم يكمل القراءة واكتفى بها، قاده تفكيره نحو باب المسجد الصغير الذي لم يعد فيه غيره، كان المسجد مُضاءً بأنوار جعلته يبدو كالشمس التي تستعد لتنشر ضياءها على العالمين، أدار بصره في المكان حتى وقع على مفاتيح الكهرباء لإطفائها، فقد بدأ الصباح في زيارة الأرض ولا حاجة للكهرباء.

عاد إلى غرفة الهندي الجانبية، ولكنه لم يرد الدخول، فجلس على أريكة وضعت أمام غرفته ينتظر، لكن ماذا ينتظر الشمس حتى تشرق، أم العصافير حتى تنشد ألحانها، أم فرحة تغمر قلبه المنقبض؟!!

مرت ساعات قليلة جاءه بعدها الهندي يلف قطعة من القماش حول خصره، عاري الصدر وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، ويشير بيده ناحية باب البيت الكبير، كانت الساعة تقترب من الثامنة صباحًا. فذهب ناصر إلى حيث يشير؛ ليجد سيارة كبيرة الحجم في انتظاره ليستقلها، كانت السيارة تشبه في لونها لون الرمال، لها كابينة واحدة وحوض كبير مرتفع، وضع بداخله الأمتعة والأغراض التي تعينه على العيش هناك في غربته المضاعفة، فهو لا يعرف الأرض ولا تعرفه ولم يعرف أحد، وبعد قليل سيصبح وحيدًا بلا رفقة أو صحبة، غربة بعضها فوق بعض.

انطلقت السيارة الشاصي البريّة بعد أن استقر على المقعد الأمامي بجوار صَيّاح، الأخ الأصغر لمشعل الذي سيوصله إلى المزرعة، كان ناصر مطبق الشفاه، لم يتحرك له ساكن سوى عينين ترقبان ما يجري ويدور، فقد أصبحت عينه أكثر

اتساعًا تراقب، وتستكشف الطريق المُعبد لها، والسيارة تنطلق وقد تركت عجلاتها الضخمة المرتفعة وراءها عاصفة ترابية تحول بينها وبين رؤية ما خلفها بسرعتها الهائلة والمتهورة التي جعلته يتشبث بالمقعد كأنه قطعة منه، والسيارة تحاور الطريق إلى ممراته الآمنة، تتفادى الصخور والأحجار الكبيرة، مُصدرة صريرًا لعجلاتها يصم الآذان، وأزيز الرمال والحصى الذي تفركه فركًا.

وما إن وصل إلى المزرعة حتى فتح صَيّاح باب السيارة بقوة وهو على عجلة من أمره، ثم ضرب الباب ليغلقه محدثًا صوتًا قويًّا دون النظر إليه، وبلهجة عالية أشار بيده إلى ناصر، قائلًا:

ـ هيا، انزل هذه الأغراض.

ترجَّل ناصر بقدمين متثاقلتين، وصعد إلى السيارة، وقام بإنزال ما بها من أغراض حتى فرغت دون مساعدة صَيّاح الذي لم ينتظر حتى يُدخلها ناصر إلى غرفته وأسرع؛ ليستقر خلف المقود، ويحرك عامود نقل الحركة بسرعة كبيرة ضاغطًا بقدمه على دوَّاسة البنزين مرتين حتى استغاث المحرك من فعلته، وقد ألقى نظرة على ناصر من وراء الزجاج المغلق، قائلًا:

ـ أتريد شيئًا؟!

حرَّك ناصر رأسه نفيًا في استسلام عجيب، ولسان حاله يقول:

ـ وماذا سأريد في تلك الصحراء القاحلة، وماذا ستفعل الإرادة أمام تلك الحياة التي تقهر إرادتنا، وتسلب أحلامنا وتفرقنا عن الأحبة، وهل لنا من أمرنا شيئًا؟

قالها وهو يراقب ذلك الغبار الذي ملأ السماء، وكأنها لن تصفو بعد ذلك أبدًا، الذي خلّفته السيارة التي ابتعدت في سرعة، وكأنها هاربة من مطاردة، وقف طويلًا حتى انقشع الغبار، فهو الشيء الوحيد المتحرك الذي يراه، ولم يُحِد نظره عن الطريق الذي أتى منه، تحرك خطوات ثقيلة يخطوها عجوز في أضعاف عمره، ثم التفت ليتطلع إلى تلك المزرعة، وهو يتمتم:

ـ صحراء قاحلة، يأتون بنا لنزرعها فتمتلئ أرجاؤها بالحياة، في الوقت الذي تجدب فيه قلوبنا من قسوة الغربة والبعد، فكأننا نأخذ من حياة قلوبنا لتحيا تلك الأرض القاسية الجدباء.

أرخى نظره إلى أمتعته المبعثرة ثم حوله، محدقًا في كل الأنحاء يستكشف المكان من جديد؛ ليبدأ في ترتيب غرفته، التي كانت تحتوي على فرش متواضع للنوم، وهو عبارة عن إسفنجة بحجم السرير، ووسادة واهية، ومسند إسفنجي، وغطاء خفيف يناسب الصيف، وأوانٍ بلاستيكية كبيرة بها ماء، وأكياس من الخبز ومعلبات وثمار من الخضروات، تفحَّص أمتعته بعيون باردة، وأيدي مترددة، وقلب يسرع في الخفقان، لقد تأكد أن مكوثه هنا سيطول.

ولكن مع مَنْ في هذا الفضاء الفسيح؟

الفصل الثالث

لطالما حلمت الأم برجوع ولدها إليها، فهي التي لم تتعود أبدًا على ذلك الفراق بعد وفاة أبيه، كان السهر أنيسها الوحيد في ليلها الطويل، وكان النوم زائرًا خفيفَ الظلِّ شحيح الحضور.

عادت الأم مرة أخرى إلى ذلك البيت الذي تعلّق قلبها به، أو إن شئت قل بتلك الفتاة، فكانت الدهشة أكبر، والتساؤل يزداد حينما رأتها سلمى للمرة الثانية في أقل من أسبوع، لكن هذه المرة أجابت الأم على كل التساؤلات المحيرة، ووضعت حدًا لفرط دهشتهم لزيارتها غير المعتادة، حينها علموا منها أنها جاءت في طلب سلمى خطيبة لابنها، ثم زوجة له إذا كتب لهما النصيب ذلك.

فرَّت الفتاة من مجلس النساء إلى غرفتها تستتر عن كل العيون، عيون كل من حولها، أمها وأختها والزائرة، هي لم تره ولم تعرفه قط، فقط مرَّ الاسم على مسامعها مرات قليلة، دقَّ قلبها الصغير، لكنها لا تدري هل من وقع الخبر عليها، أم من فرط فرحة داهمت عالمها المحصن الذي لم يقربه أحد من قبل دون سابق إنذار؟ فهي الصغيرة التي ما خطر ببالها هذا، وبهذه الطريقة والسرعة وفي تلك الآونة.

لكن كيف لها أن ترتبط باسم إنسان لم تره، ولم تعرفه ولم تلتقِ به مطلقًا، ولو على سبيل الصدفة؟ حيث إن أهل القرية ليسوا غرباء عن بعضهم. مرَّ فقط مرات قليلة وعلى استحياء في مخيلتها مثلها مثل باقي بنات جيلها، وإن لم تتكون في ذاكرتها الخالية ملامحه، دارت قدماها الرشيقتان في أرجاء البيت الواسع غرفة بعد أخرى تبحث عن مجهول أرادته، كلما استجمعت ما تريد فقدته ذاكرتها فتعود بلا شيء، تحدِّق بعيونها السوداء الواسعة في أشياء لم ترها، انتابتها حالة غريبة عليها بين الرفض والقبول، بين الفرح وتأجيله، بين تفكير وتركيز ليس له وجود.

هل قلبها الصغير يدق للحب بالفعل وهي ما زالت بنت الخامسة عشر؟ ثم ماذا تعرف هي عن الحب؟ وماهو الحب بالنسبة لها؟ لم تسمع به ولم تعرفه، لم يحادثها أحد عنه حتى خليلاتها، إذ لم تكن هناك فرصة لذلك؛ فالحياء يمنع بنات الريف خاصة في هذه السن الصغيرة حتى من التطرق لذكر الحب أو الحديث عنه، حتى في تجمع الأسرة حول الشاشة الصغيرة، كانت خجولة، فما إن ترى كلمات مشهد أو كلمات رومانسية أو لقطة تقترب فيها الشفاه بقبلة حتى تفرّ استجابة لأحد لم ينادِ، أو تهرول بحجه العطش، لكنه الخجل الذي يمنعها من الجلوس حتى تحمرَّ وجنتاها من شدة حيائها.

كان هذا اللقاء ذات مساء إحدى ليالي الصيف الهادئة بطبيعة البيئة المحيطة، كانت الأجواء ربيعية ساحرة بنسمات متموجة رطبة، وقد صعدت سلم البيت

الخلفي إلى السطح، لا تشعر إن كانت قدماها تلمس الأرض أم أنها تطير بالفعل، تشعر أنها فراشة أو ريشة في الهواء، لمست وجهها نسمات الهواء الباردة الآتية من الفضاء الفسيح من تلك الأرض الخضراء، نسمات لا تصدها مبانٍ، ولا يحجزها أسوار، ولا يحجبها شواهق العمران.

كان البيت على أطراف القرية الصغيرة يستقبل نسمات الهواء، تلك التي تداعب الزروع، وتلامس خد الشجر قبل أن تلاطفها وتلمس وجهها الأحمر خجلًا، لكن تلك النسمات الرقيقة النديّة أبدًا لم تُهدِّئ من نبضات قلبها المتسارع التي كادت توقف ذلك القلب الصغير، ولم تفلح حتى في أن تبرد برقتها تلك الخدود المتوجهة بلون براعم الورد الخجول تحتضنه حديقة غنَّاء، وقد ارتوت من عرقها المتصبب على جبينها الأبيض المتلألئ على شواطئ عيونها الحائرة.

دارت فوق السطح في جميع اتجاهاته لا يستقر نظرها على شيء، حدَّقت في الأشجار البعيدة المتمايلة، ثم أرسلت نظراتها الخاطفة إلى السماء، ربما تعود إليها برسالة أو إجابة لما يحيرها، وفجأة يستقر على شيء قريب تفتقده ولا تريده أيضًا، مثلها مثل طائر تعلَّم الطيران لتوّه، فلا ينقصه إلا تحديد وجهته المجهولة، ولما سلكها وابتعد عن عشِّه الأمين تاه وارتعد بعد أن فقد طريق عودته، فتمنّى لو عاد حتى يستقر ويهدِّئ روعه في طريق اختلط وتشعَّب أمامه.

أرخى الظلام ستائره على الكون بلونها الأسود، لم ترَ سوى نجمات لامعة بلمعة عيونها البريئة من بعيد، نجمات استرقت النظر من وراء تلك الستائر السوداء،

التقت عيناها بتلك النجمات في الأفق البعيد؛ فهي الوحيدة التي تراها وتسمعها بل تشعر بها.

وبينما هي شاردة الذهن تبحث عن نفسها وسط النجمات القليلة، وإذا بيد وضعت بهدوء على كتفها، مما جعلها تقفز قفزة مرعبة مع شهقة غريق ابتلع موجة ماء في بحر ملحه أجاج، وما إن التفتت حتى وجدت أختها الكبرى؛ لتسألها عن سبب وجودها في هذا التوقيت وإن كانت تدرك السبب وتعرفه.

ردت متلعثمة تبحث عن شفتيها لتحركهما، ولسانها الذي أمسى صلدًا يابسًا قبل أن تبحث عن رد يناسب موقفها، ثم أردفت متلعثمة:

ـ جئت أجمع غسيل البيت حتى لا يبيت هنا.

قالت هناء مشاكسة أختها:

ـ الغسيل ما زال الماء يقطر منه، فكيف تجمعينه؟

احمرّ وجه سلمى خجلًا، فأردفت هناء مبتسمة في مكر:

ـ أم أن جو الربيع المعتدل قد أعجبك.

ثم دارت بظهرها ناحية سلم النزول، وتركتها لتعود وقتما يحلو لها، ولكنها تجمَّدت مكانها وهي تلف كفيها كلًّا على الأخرى وتعتصرهما من شدة توترها وارتباكها، ثم نظرت بطرف عينيها لتجد هناء على آخر درج من السلم، فنزلت وراءها مودعة نسمات الهواء، وصديقاتها الجدد من النجمات الصغيرات إلى أن يلتقوا، قطعت صالة البيت الطويلة والفسيحة في خطوتين بقدميها الصغيرتين

إلى غرفتها، ثم أغلقت الباب وراءها، ذلك الباب الذي لم يكن له قفل لإحكامه، ثم هوت على ذلك السرير الكبير تحدِّث نفسها:

ـ بماذا أفكر؟ لم يحدث شيء بعد، فهو مجرد طلب من أم لولدها، تبحث له عن شريكة لحياته، إما أن تجد أو لا تجد، يوافق أبوها أو يرفض، ثم أنني لا أعرفه، لم ألتقيه ولو صدفة، أمه قالت إن حدث القبول فقد تأتي بصورة له حتى نراه جميعًا، لماذا لم تأتِ بصورته قبل القبول أو الرفض، هو حتى لم يعتد السير في شوارع القرية، حتى أتذكر أني رأيته ولو صدفة، لقد سمعت منهم أنه يعمل دائمًا في مزرعة أثناء دراسته التي لم تكتمل حتى سفره.

التصقت رأسها بمخدتها دون أدنى حركة، وعيناها شاخصتان في سقف غرفتها إلى ذلك المصباح الكبير والوحيد في الغرفة، ويداها مثبتتان بجانبها دون حركة كلوحة شمع منحوتة، لم يدخل عليها أحد غرفتها؛ ليقطع ذلك التفكير العميق وهذا الشرود الجامح، حتى ضوء المصباح الكبير المتوهِّج بتوهِّج قلبها الصغير، وهي تتساءل:

أَ لِي قَلْبٌ يُحِبُّ وَيَعْشَقُ
وَيَسْرَي الْحُبُّ في حنَايَاه
أَ لِي شُعُورٌ يَوْمًا يَتَدَفَّقُ
وَحَبيبٌ لقلبي قَدْ أَهْوَاه
أَ لِي ذَلِكَ الْعِشْقُ، وَقَلْبٌ يَغْدَقُ..

وَقَلْبٌ أَسْكُنُ إِلَيْهِ وأَتَمَنّاه..

عُصْفُورٌ كقلبي إِنْ زقزَّقَ

أَ يَطِيرُ يَوْمًا في عَالَمٍ يَهْواه

وَيَبْنَي عُشًّا في السَّحَابِ يُرَقْرِقُ

بوَليفٍ يُسْكِنُهُ السَّحَابُ بَلْ أَعْلَاه

وَيَرَى حُلْمُهُ بِعُيُونٍ تُحَدِّقُ

بَلْ يَرَاه بِقَلْبِ الْحَبِيبِ كَمَا سَمَّاه

حُبًّا يَأْتِيك يَوْمًا وَيَصْدُقُ

يُرِيحُ الْعَقْلَ فَإِنَّ الْفِكْرَ أَعْيَاه

ربيع بدأ يزدهر في حياتها، تفتحت أذناها لسماع كلمة عروسة، وخطوبة ليست لإحدى بنات العائلة أو إحدى أخواتها اللائي يكبرنها، إنما هي، فكم حضرت لهم من حفلات خطوبة وزفاف، ولكنها الآن أصغرهم، لطالما فرحت وصفَّقت في أعراسهم ومناسباتهم، عادت لتتساءل:

ـ أيكون لي أن أفرح وأسعد مثلهم؟ هل سيوافق أبي وأمي وإخوتي؟ هل أسأل أخي عنه فهو يعرفه؟ لا، لا أستطيع فعل ذلك، فخجلي يمنعني أن أفعل، لم يحدث شيء، أنا لم أره، طويل أم قصير؟ جميل أم غير ذلك؟ يكبرني بكم عام؟ كيف هي أخلاقه؟ أنا لا أشغل نفسي، إنه مجرد كلام تحدثت به أمه إلى أمي، الموضوع لا يستحق كل هذا التفكير العميق والقلق والتوتر والاهتمام.

لم ترمش عيناها ولم تغمضها في وجه المصباح المتوّهج، سهرت طويلًا وهي التي لا يؤذّن للعشاء إلا وهي في مراحل النوم العميق، مثلها مثل طيور البيت وكل أهل القرية، لا ترى بعد صلاة العشاء أحدًا يمرُّ في الشارع أو يمشي، فقط أصوات الطيور من بعيد على أغصان الأشجار المتحركة بموجات الهواء المتتالية، تسمع فقط نباح الكلاب، وحفيف أقدامها المسرعة في الشوارع الضيقة عندما تمر بجوار الشبابيك، شبابيك البيوت المتواضعة، وهي تطأ بأقدامها أعواد القشّ المبعثرة؛ فتصدر ذلك الحفيف، سرحت بعقلها كثيرًا، ثم غاصت في نوم عميق.

∞

انتصف النهار، واستقرَّت الشمس في كبد السماء ترسل سهامها الحارقة متعامدة على وجهة الأرض، فجعلت من الرمال لهيبًا حارقًا، ومن الحديد جمرًا لا يحتمل، ومن الصخور صهدًا مستعرًا، كان ناصر داخل الغرفة المعدنية بعد أن رتبها، وأعدَّ فيها أمتعته لإقامته الدائمة، لم يحتمل زيارة الشمس الثقيلة والحارقة فآثر الخروج، يتحسس بقدميه مكانًا رطباً يطأه، حتى نسمات الهواء توقفت متضامنة مع لهيب الشمس، لم يذهب بنظره بعيدًا إذ لا يستطيع، دار حول الغرفة ليجد حيِّزًا ولو صغيرًا من الظل يأوي إليه إلى أن ترفع الشمس موجاتها الملتهبة.

قبل الساعات الأخيرة من النهار ما بين عصر ومغرب، وبعد أن بدأت الشمس ترفع لهيبها رويدًا رويدًا، متأهبة للعودة إلى خدرها تسحب وراءها أطراف ردائها وتلملمه؛ إيذانًا للمبيت على موعد جديد لزيارة الأرض. وصل مشعل إلى المزرعة بسيارته الفارهة، فوقف ناصر منتفضًا عندما سمع هدير محركها، فهو الصوت الوحيد الذي شق صوت ذلك السكون، واقترب من السيارة تحمله قدم في حين أبت الأخرى أن تحمله، كان يجرّها إلى أن تعود إليه، ينفض الرمال العالقة بملابسه، مثبتًا نظره إلى السيارة التي شقَّ عليه أن يراها من شدة بياضها، فقد كانت الشمس تعكس أشعتها الزجاجية في عينيه.

نزل مشعل مشرئبًّا بعنقه رافع الرأس، ثم أشار بيده دون أن ينظر إلى ناصر أن يحمل ما بالسيارة من معدات مع المهندس الذي جلبه معه. ساعة ونصف الساعة من العمل الجاد والمضنِ، ساعد خلالها ناصر المهندس الذي لم يفهم كلامه، فقد كان يتحدث الإنجليزية إلا بعض الكلمات العربية العالقة في أطراف لسانه ولطالما يكررها.

كان ناصر يقظًا متأهّبًا لأي طلب يُطلب منه مرتكزًا على أطراف أصابعه لسرعة الحركة، فبمجرد التفات المهندس إليه كان يعطيه ما بيده، وإن لم يكن هو ما أراده، حتى انتهى العمل وشرح المهندس بعربية مهشَّمة وإشارة يده كيفية عمل الآلات والتشغيل والإطفاء.

كان ناصر قريبًا على بُعْد خطوة واحدة يسترقّ النظر الحاد والسمع ليعرف ما يدور، حتى دندن المُوَلِّد دندنة بطيئة، وما لبث حتى أصبح أزيزًا بصوت عالٍ ورتيب، ثم بدأت آلة الرفع بتكّات مثقلة حتى أخذت دورتها كاملة، وبدأ هديرها المزعج الذي يصم الآذان، ويقطع سكون المكان، إلا أنهما يبعدان هناك في أقصى زاوية المزرعة؛ لتجنب الضجيج الذي يحدثانه.

كان لقدوم صاحب المزرعة والمهندس الذي بصحبته أثر كبير في نفس ناصر الذي شعر بسعادة بالغة، حيث إنهما قطعا عليه ساعات النهار الطوال التي قضاها وحيدًا، يرسل ناظريه شمالاً ويمينًا بحثًا عن أحد يتحدث إليه أو شيء يراه، وما زاده غبطة وسعادة أكثر عندما تدفق الماء بقوة من فوّهة الماكينة، فقد كاد يطير فرحًا، وقد جرى الدم الهارب في عروقه، وسرت سعادة في شرايينه وانفرجت أساريره.

ماء هنا؟! في هذه الصحاري وتلك الأرض القاحلة؟! يراه رأي العين، وقد أخذته قدماه عُنْوة باتجاه الماء، وفتح كفّيه تحته مبتسمًا غير عابئ أن تبتلَّ ملابسه، جثا على ركبتيه تحت الماء فرحًا ينضحه على وجهه وشعره، فقد بثّ فيه الماء حياة جديدة وأمل لطالما انتظره، كان الماء بمثابة الدم الذي سرى في شرايينه، والهواء الرطب الذي يستنشق بل أكثر من ذلك.

بعد أن تأكد من حتمية وجوده في هذا المكان، اندفع الماء وتدفق من فم المِضَخَّة، إلا أن تدفقه على تلك الأرض المتعطشة يسري ببطء، فقد كانت تبتلع الماء الذي

يمرُّ عليها في نَهَمٍ، كان الماء المتدفق من باطنها هو الذي يرطب وجهها الملتهب ويغسل جبينها الحار، تتلقف الماء شهقًا، كأم تضم وليدها الصغير في شوق إليه، ناظرة إلى عيونه تتلمس تفاصيل وجهه ونعومته، بعدما كان حملًا في بطنها فهو الآن أمامها، وبين أحضانها تراه رأيَّ العين.

وقبل أن يصفرّ وجه الشمس اصفرار الرحيل، اصفرار المفارق لأحبابه، وقد مالت بخدها على صدر الأرض تسحب يدها من بين جنباتها بهدوء خشية أن توقظها، وتبتعد عن يد النهار على موعد آخر. استعجل صاحب المزرعة المهندس؛ ليجمع معداته بمساعدة ناصر وهو يصدر صوتًا أجشّ مدويًا للمهندس أن يسرع، فقد كانت قناعته أن ما يملكه من مال خير من تلك الشهادات والجامعات التي يملكها هؤلاء، فكان يقول له بتعالٍ تقليلاً من شأنه:

ـ هيا أيها المهندس، ألم تنتهِ بعد؟

تأهب الاثنان واستويا كلٌّ على مقعده، ثم فرّت السيارة وناصر يراقبها بقلب مخلوع، تاركة وراءها هالة من الغبار وموجات من الأتربة، إلى أن أصبح خيطًا رفيعًا لا يكاد يراه، ثم التفت بهدوء وترقب ناحية الغروب يناشد الشمس أن تنتظر ويستجديها أن تبقى وتظل تؤنسه، فبرحيلها يأتيه الليل الأسود الذي كان يخشاه في صغره، ولطالما حاول أن ينتصر عليه، فهل يستطيع مواجهته في هذا المكان؟ بعد قليل سيلفّ المكان ظلام دامس، ويلتف حول عنقه من جميع

الأرجاء، فالليل وحش يغرز مخالبه في صدره، ويكشر عن أنيابه في وجهه، ويحدِّق الظلام الدَّامس في عينيه، ويسلب الأمان من قلبه ويزرعه خوفًا ورجفةً تزلزل أركانه.

مشى بأقدامٍ متثاقلة تحمل وزنه أضعافًا من الهموم، تحرَّك ببطء يجبر قدميه على السير، عاد إلى تلك الغرفة البائسة؛ ليفترش زاويتها وقد تكوَّم على ركبتيه، ويداه أمام صدره خائفًا يترقّب وقد نسي جوعه وعطشه، خاصمه النوم وهجره الأمان وأدار ظهره له.

أيُّ أرض تضمك غير أرضك، وأيُّ سماء تظلك غير سمائك، وأي ماء يرويك غير نبعك، وأي مكان تنشده وأنت الغريب، أرضك التي تحمل بين طياتها أهلك وأحبابك وذكرياتك بحزنها قبل فرحها، وسماؤك التي تأويهم من حرِّ شمسها وبرد شتائها، وتشهد على كل كبيرة وصغيرة من تفاصيل حياتهم، ماؤك الذي لا يروي ظمأك فحسب بل يروي شوقك وحنينك ولهفة قلبك ولوعته، أدار بصره في تلك الغرفة الضيقة محدثًا نفسه:

ـ مع مَنْ أتحدث هنا؟ مع نبات لم ينبت في أرض لم تتآلف حباتها؟ أم مع تربة أجهلها ولم تعرفني؟ أم مع هواء لم تخالطه أنفاسي؟ أم مع رمال ترفض وجودي وتُلْهِبُ قدمي حرقًا وتلفح جسدي شوقًا إلى بلدي وموطني؟ لم يمرّ الكثير من الوقت على غربتي.

والألم يعتصرني، يكاد أن يفتك بقلبي الضعيف بين جنبي. أرى كل شيء بعيون شاخصة، أرى كل شيء يابسًا جافًّا عصيًّا على التآلف والائتلاف، أفتقد أصوات البشر وملامح الحياة التي لم أختلط بها.

هل سأنبت هنا؟ ولكن كيف أنبت ويشتد عودي، وأنا الذي ولدت في طينة رطبة طيبة حنونة رخوة، وهل سيخضرّ عودي هنا إذا لم يخضر عودي على ضفاف النيل، فهل يخضرّ هنا ويزدهر؟ قلبي كن معي لا عليّ، هَدِّئْ من روعي ووحشتي، أعطني السكينة ولا تهجرني، لا تسافر وتتركني لآلامي ووحدتي، هل تقاس الغربة بعدد السنين والأيام، هل الغربة أن تهجر أرضك وأهلك، أم تعيشها وتكتوي بنارها المحرقة وأنت بينهم، أنفاسهم تحيط بك من كل جانب، تراهم ويرونك، تكلمهم ويتحدثون إليك، ولكن المسافات بعيدة بعيدة، ليس هناك نقاط التقاء.

هتف في نفسه:

ـ ماذا حدث لعقلي؟ وكيف أفكر؟ ما هذا التضارب؟

كاد رأسه ينفجر كحبة بندق بين فكي كَسَّارة، بات ليلة طويلة مرت عليه سنوات طوال، لم يغمض له جفن، ولم يهدأ له بال، متكوّر على ركبتيه، وقد سقطت رأسه بين رجليه قبل أن تسقط في تفكير بعيد بِبُعد بئر سحيق.

ظل كذلك، حتى أزاحت الشمس سواد الليل، ومسحت بيدها على وجه الأرض فأضاءت، وما إن ارتفعت قليلًا حتى أرسلت سهامها وعلت، ثم

تعامدت على الأرض، سخن الهواء والتهب الصخر وتقدد الرمل وهو بجوار البئر، تمنى لو قام بتشغيله حتى يرى الماء الذي رآه بالأمس. حدَّق بنظره في مكان تدفّق الماء، لقد جفَّ ونضب واكفهرّ وجه الأرض، تلمَّس الثرى ونشبت أظافره في رمال الأرض، قام وبيده قبضة منها؛ ليقربها من أنفه ويشمها، لا حياة فيها وكأنها شيء لم يكن. فحدَّث نفسه ثانية:

ـ أيُّ حياة انتظرها وأيُّ زرع ينبت هنا؟ وكيف لعشب أخضر نضرٍ يكسو هذا الوجه الشاحب؟ وجه اصفرّ اصفرار مريض ينتظر منيته.

ضاق الخناق على صدره فأخذته قدماه نحو غرفته، جمع منها ما يهمه من أشياء، وترك مالا يعنيه ثم مشى وتوقف عند بابها، تاركًا لها نظرة شخص غير بائس عليها، وقد عزم ألا يجلس مهما كلفه الأمر، تراءت أمام عينيه خضرة أرض مصر ومائها وشريان حياتها، فعلى مدار اثني عشر شهرًا تكون أرضها خضراء، ما إن ينقطع عشبها في مكان حتى يزدهر في آخر، مشى فلوَّحت أمامه الشجيرات القليلة بيدها الجافة، تصفعها الرياح بكفها الحار، فتمنى لو رواها من البئر قبل أن يرحل.

سلك الطريق الذي أتى منه في ممرات السيارات، يسيل عرقه وتلفه الشمس بثوبها الحامي، تكاد توقفه بلهجتها القوية القاسية، استمر وواصل المشي حتى وصلت أقدامه المتعبة إلى مفترق طرق بأرض منخفضة متشعبة الطرق والممرات التي عَبّدتها السيارات، كثرت أمامه الدروب شمالًا ويمينًا لا يدري

أيًّا منها يسلك، وقف طويلًا مترددًا وقد وضع متاعه أمامه، وحجز الشمس بيده ليستكشف دروبها البعيدة التي لا تنتهي.

جلس على متاعه فقد كان الرمل ملتهبًا، انتظر وانتظر ثم قرر ورجع سيرًا إلى حيث لا يريد، زفَّته الشمس إلى مقره، فاستقر بغرفته حاملًا متاعه، بل قل حاملًا حزنه وألمه بين طيات قلبه المتمزق النازف حزنًا أَلَمَّ به وَهَمٌّ أغشاه، حتى أتاه الليل المخيف فودعته الشمس ثانية بقرصها الأحمر الحزين؛ ليهتف بصوت مبحوح:

ـ إن الغربة عملية قلب مفتوح لا تلتئم إلا باحتضان من تحب.

تكوَّم في غرفته ثانية، وبات ليلته على هيئته السابقة، التصق لحمه بعظمه فليس له أنيس إلا الخوف، ولا صديق إلا التعب، ولا حكاية إلا الغربة التي أصبحت أرضًا يفترشها وسماء يلتحفها، غربة فوق غربة، يعيش دقائقها، سنوات لا تمر وولادة أيامها متعثرة.

&

في مساء تلك الليلة كانت الأم قد أعدَّت لصغارها طعامًا لطالما أحبوه واشتهوا وجوده وانتظروه طويلًا، كان قِدْرٌ من الملفوف "المحشي" تنضجه الأم على موقد الحطب، وبجواره على عين الموقد الأخرى طير من الأوز الريفي الذي لا يكاد القِدْر يحتويه من كبر حجمه.

جلست الأم أمام القدرين تشعل تحتهما الحطب والنار، تلف حولها بدخانها المتقلب، فلتفح وجهها تارة وتغدو عنها أخرى، تنحني لتنفخها لتشتعل ثم تعود بعيون دامعة حارة، وما إن انتهت من طبخها وهدأت النار وخمدت وطاب طبخها حتى وضعت لفافة من القماش على رأسها، ثم حملت قِدْرَ الملفوف مقلوبًا من ناحية الغطاء على رأسها، وقاع القدر يتصاعد منه دخانه الأسود.

دخلت إلى البيت دون أن تمسك القدر بيدها ودون أن يقع؛ لتُكوّن لوحة ريفية بديعة رسمتها بعناية ودقة قلَّما يقف أمامها رسّام، لوحة بسيطة لم تخطر حتى بعقل دافينشي حين أبدع في الموناليزا، زفُّوها الصغار وهي تمشي أمامهم جوعى، منهم من يسبقها إلى مكان الطعام، ومنهم من تعلق في طرف جلبابها، ومنهم من يدندن بالبكاء، أفرغت قدر الطعام على صينية كبيرة تصاعد منها البخار عاليًا، ولفَّ المكان وعانق سقف البيت، ولفت رائحته الذكية الأرجاء، وأصبح الجو ضبابيًّا داخل تلك الغرفة الصغيرة، كان ذلك هو الطعام المحبب لديهم، ويا حبذا لو تصادف مع فصل الشتاء البارد.

رمقت الأم أطفالها الذين تحلَّقوا حول الطعام، وإذا بمكان ابنها فراغ، فحوّلت نظرها بسرعة قبل أن تسحَّ دموعها التي اختلطت بدخان الطبخ، ونار قلبها التي غطت على نار الموقد المشتعل، إنه الفراق.

الفصل الرابع

في الصباح الباكر وقبل أن تقوم الشمس من نومها جاءه صَيّاح، فاستيقظ ناصر من نومه القلق، وجرَّ قدميه خلفه، إذ أنه لا يستطيع السير معتدلًا من سوء نومته، وارتمى فوق مقدمة السيارة ورمق صَيّاح بنظرة طويلة، وكأنها نظرة عتاب على إيقاظه، ثم تحركت شفتاه في ثقل:

ـ لماذا تركتموني هنا؟ ولماذا تفعلون بي ذلك؟

لم ينبث صَيّاح بشق كلمة حتى فتح باب سيارته وترجَّل نحوه واضعًا يده على كتفه المرتعد، مرسلًا نظرة رقيقة إلى عينيه الحمراوتين المتعبتين، ثم تمتم قائلًا برفق، وبصوت هادئ أراد أن يطمئنه به:

ـ لم أعلم بوجودك هنا إلا الليلة، لذلك أنا هنا الآن.

قالها، ثم أردف قائلًا:

ـ ثم إن أخي قد سافر مع والدي للعلاج فجأة إلى تركيا نظرًا لمرض والدي المفاجئ.

رمقه ناصر بنظرة تفيض بالقهر فأخبره وهو يتطلع إلى عينيه التي كانت تنفتح بصعوبة:

ـ عليك أن تصبر، فما هي إلا أيام قليلة وسيتم تجهيز غرفة أخرى غير هذه، وسيتم بناء استراحة كبيرة لوالده وأخيه أيضًا، ويَعْمُر المكان وتشعر بالأمان أكثر.

ظل صَيّاح يشرح له ويبرر سبب بقائه، وما زالت يده فوق كتف ناصر حتى يصبر، أما ناصر فقد أرخى بصره إلى الأرض، والتزم الصمت، ولكنه هتف فجأة، وبصوت وشفتين مرتعشتين:

ـ ما سر بقائي هنا في هذه الأرض الخالية؟

قاطعه صَيّاح، قائلًا:

ـ أنت هنا لحراسة هذه المعدات.

لم يدعه ناصر يكمل حديثه، فقاطعه في استنكار:

ـ أحرس ماذا؟ ومن سيأتي إلى هنا؟ وكيف لي أن أحمي هذه المعدات وأنا لا أستطيع حماية نفسي في هذا الفضاء المتسع؟

وضع صَيّاح يده الثانية على كتف ناصر الآخر، ولفَّه إليه بحماسة وهزه هزتين، ثم نظر في عينيه، وقال:

ـ تعالى معي.

قالها ومشيا خطوات قليلة ناحية باب السيارة؛ ليفتحه صَيّاح بيدٍ، ويده الأخرى ما زالت تمسك بناصر، وينزل منها فطور قد أحضره معه، كان الإفطار عبارة عن خبز حار، وإبريق من الشاي، وعصائر وماء بارد أنزله بنفسه، وهو يقول:

ـ أنا معك اليوم، لا تقلق.

ثم مشيا إلى الغرفة التي حدَّق فيها صَيّاح وهو يتطلع إليها مليًّا، وكأنه يراها للمرة الأولى، مستنكرًا كيف تكون سكنًا ومأوى لآدمي يقيم فيها.. كان صَيّاح طيبَ القلب عطوفًا، وكان مقربًا من والده الشيخ الكبير أكثر من إخوته، يأتي ويغدو معه أينما حلَّ ورحل، إلا أن مشعل هو المتحكم في كل مشاريع والده من تجارة وعقارات، حتى المزارع التي ما زالت تحت الإنشاء كان هو المسؤول عنها.

تناولا طعام الإفطار سويًا، واحتسيا كأسين من الشاي، وقد تجاذبا أطراف الحديث، فسأله ناصر:

ـ كنت أريد أن أسألك عن ذلك الرجل المصري الذي جلبني إلى هنا للعمل لديكم، فمنذ أن أتيت إلى هنا لا أعرف عنه شيئًا، كان صيَّاح يعرف الرجل جيدًا، فقد جلب لهم الكثير من العمَّال والمزارعين على مرِّ السنوات السابقة، وما أن يصلوا إلى مكان عملهم حتى يختفي عنهم ولا يهتم لأوضاعهم.

فأجابه صيّاح في تململ:

ـ تقصد ذاك المصري الذي.....

وتعثرت الحروف على شفتيه، ثم استجمعها ثانية، قائلًا:

ـ لقد رأيته ذات مرة مع أخي حيث إنه المتعهّد لجلب العمالة التي يحتاج إليها في شتى المجالات.

قالها صيَّاح متعمدًا إخفاء عدم رغبة الرجل في رؤية ناصر، أو معرفة شيء عنه طالما أنه هنا، فهو يعرف أن ما يهم الرجل هو المقابل المادي؛ فهي مجرد تجارة يتربّح منها ليس إلا؛ لذلك أردف صياح وقد علت نبرة صوته الخافتة:

سأسأل عنه إذا كنت تريده في شيء.

لقد أتى بي ولم يعلمني مسبقًا عن طبيعة المكان، ما أوضحه لي أنه عمل في مزرعة، فجال في ذهني وقتها منظرها وخضرتها، لم أحسبها على هذا النحو.

لحقه صيَّاح بسؤاله:

ـ تقصد أنه لم يعجبك الوضع والمكان؟

وقبل أن يجيبه ناصر، أردف قائلًا:

ـ كل شيء سيكون على ما يرام لا تقلق، وأنا بدوري سأستفسر عن وجوده بل وآتي به إليك.

أردف ناصر:

ـ حتى إنه لم يعلمني كيف ستصل لي رسالة إلى هنا من أهلي، أو كيف أراسلهم أنا من هنا؟

طمأنه صياح، قائلًا:

ـ لا عليك، سأرتب لك كل هذه الأمور.

ثم ربت على كتفه ليطمئن، وهكذا أصبح صَيّاح حلقة الوصل بين ناصر ورسائله وبين بقية العالم، ففي وسط اليأس يأتي شعاع النور، ووسط الغربة ينبلج فجرًا يشرق بيوم جديد قد يكون الأجمل، ووسط الأمواج الهائجة قد يشرئب شراع الأمل.

قضى معه صَيّاح اليوم إلى ما قبل الغروب، وقد تجولا في أرجاء المكان، ولمح ناصر من بعيد مزارع أخرى تحفُّها الأشجار، ودَّ لو تَعرّف على مَنْ فيها، اطمأن قلبه القلق وهدأ روعه، وسكن الدم في عروقه، فعرض عليه صَيّاح الذهاب معه للمبيت في غرفة العامل الهندي، ولكنه تفاجأ برفض ناصر حيث أبدى رغبته في المبيت هنا في المزرعة، فاستجاب صَيّاح لرغبته وتركه؛ ليغادر تاركًا ناصر وراءه لوحدته، ولكن هذه المرة لم يفرّ بسيارته كسابق المرات.

ها هي الليلة الثالثة التي يقضيها وحيدًا، لكن بلمسة من الأمل والتفاؤل الذي حلَّ في قلبه هذه الليلة، وقد هتف في نفسه:

ـ ألست أنا الذي اختار ذلك الطريق وسلكته؟ ما زلت في أوله ولم أخطُ فيه خطوة واحدة وأنا على هذا الحال، هل يليق بي السقوط؟ هل أستسلم لضعفي، وتوهن قوتي ويضعف بناني ويشرد تفكيري؟ ثم إني ما زلت شابًا في مقتبل العمر، فأنا لم أتعدى الثانية والعشرين من عمري.

قالها وقد انتفض واقفًا كمن لدغه عقرب في وسط الغربة، وقد دبَّ النشاط في أنحاء جسده، ورفع رأسه واتَّسع أنفه كفرس يشتم الهواء بِنَهَم بعد سباق طويل كُلِّلَ بفوزه، نفض يده وفك أصابعه، ووضع كفيه على وجهه؛ ليفركهما في وجهه وشعره بحركة أعادت إليه نشاطه.

وأخرج من داخله الأسد المكبوت والروح الغائبة، نفض الهَمَّ وأزاح الخوف، وخرج متحديًا الظلام الذي حلَّ بتلك الصحراء، متحديًا غربته القارصة بليلها المخيف، دبت فيه روح الإرادة والقوة، وتبدل حاله من اليأس إلى الأمل، ومن الخوف إلى الأمان، ومن التَّوجس إلى الطمأنينة، هكذا الإنسان إذا أراد وعزم، كان ناصر فارعَ الطول، عريض الصدر محمل الأكتاف مشدود القوام، ذا بشرة قمحية تزينها عيونه ذات اللون العسلي، شديد سواد الشعر الملتف، لا هو بالناعم ولا المجعد الملبد، ذا كفين عريضين وأقدام مفروشة تغلب عليها سلالته الفرعونية، هتف في نفسه ثانية، ولكن هذه المرة بصوتٍ عالٍ ومسموع، وكأن صوته يلف الأرجاء:

ـ لي طريق رسمته سأمشيه حتى آخره ما دامت تدب في الروح، سأبلغ مرادي، لن أنحني مع المنعطفات وأنجرف مع اليأس، لن يحدني عن الطريق شيء، لن أستريح في أي محطة حتى أصل، فإن حدت عن طريقي تهت وتشتت وخارت قواي "فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ" {آل عمران:١٥٩}

في هذه الأثناء كانت أم ناصر تبحث عن طريقة للتواصل مع ولدها كي ترسل له رسالة تطمئنه عنها وعن أحوال إخوته الثلاثة الصغار، كما أنها تودُّ لو أن أحدًا طمئنها عليه بكلمة، فالاتصال غير موجود والهواتف قليلة، أو تكاد تكون معدومة في هذه الأثناء إلا في أماكن بعيدة، كانت وسيلة التواصل إما عن طريق رسائل مكتوبة يكتبها أحد الجيران ممن يجيدون القراءة والكتابة، أو عن طريق تسجيل صوتي من خلال جهاز تسجيل هي أيضًا لا تملكه.

ولكنها أخيرًا وصلت إلى جهاز تسجيل وجاءت بشريط فارغ، وهي الطريقة التي كانت تصبو إليها، إذ أن ما بداخلها لن تعبر عنه ورقة مكتوبة مهما كان، وضعت الشريط داخل التسجيل بعد أن نام صغارها، وربَّعت قدميها، ووضعت يديها على حافتي التسجيل، وكأن ما تقوله سرٌّ بينها وبينه لابد أن يصله كما هو، ثم بدأت بالكلام في تلعثم وتوتر ويدها لا تفارق زرَّ الإيقاف من كثرة ما تقف، سجلت ما تودُّ إرساله على فترات، مرة بنبرة حب واشتياق إلى ولدها، ومرة بنبرة طمأنينة، ومرة نبرة حزن وألم وفراق، حتى إذا ما أخذتها عبرة البكاء قامت مُسرعة، وتوقفت نهائيًا إلى أن تستجمع نفسها ثانية.

كان يسجل أيضًا مَنْ يأتي من الجيران ولو صدفة، ويرسلوا سلامهم وتحياتهم إلى ناصر، هكذا كانت عادتهم في الأرياف، ثم أتت بالصغار وأجلستهم على نفس هيئتها أمام التسجيل، وطلبت منهم التحدث لأخيهم حتى إذا ما انتهى أحدهم من كلامه، أجبرته أن يزيد في كلامه وإن كرَّره.

كل هذا وقد تبقّى الكثير في الشريط فارغًا، فعزَّ عليها أن يذهب دون أن يكتمل ولتقل ما تقل، جلست أمام جهاز التسجيل مربعة رجليها كشيخ يعلّم تلميذه علومه وعيناها تراقب الشريط وهو يدور، وتتحدث وإصبع إبهامها منتصبًا ومتأهبًا للضغط على زرِّ الإيقاف، في حين أُغْلق عليها وجفَّ الكلام في حلقها ولم تجد ما تقوله، ثم توصَّلت إلى من يحمل رسالتها المسجلة، وقد أصابتها غبطة لطالما غابت عنها.

مرت الأيام تلتها الأسابيع انتصبت خلالها المزرعة على أركانها الأربع، ما بين بناء جديد لصاحب المزرعة استراحة، وغرفة من الطوب الإسمنتي كانت سكنًا لناصر، وخزَّانَ ماءٍ عملاقًا وقف على أركانه الحديدية الأربعة في منتصف المزرعة، شاهدًا على كل شيء يدور ويحدث، وأماكن أُعدَّت للزراعة وأشجار متفرقة ما بين الزيتون وأشجار النخيل على حوافها.

ظل ناصر وحيدًا في المزرعة طوال هذه الأيام، يعمل بجدٍّ ومثابرة بمساعدة عمال آخرين كانوا يخففون من وحدته، ويكسرون جدار غربته رغم عدم التواصل بينهم وبينه، كان مشعل يوجهه، ولكنه لم يهتم يومًا أو يرمش له جفن على تعب ناصر أو وحدته، ومما زاد في تعبه تأخر العامل الأسيوي الذي لم يأتِ بعد.

وفي إحدى الليالي الهادئة كعادتها، وبعد الانتهاء من عمل يوم شاق كما دأب على ذلك، وقد تخلَّص من ملابسه المتشربة بعرقه طوال اليوم تارة تجف وتتبلل

أخرى، وبعد أن اغتسل وذهب إلى تجهيز ما يأكل، مدَّ رجليه وطرح جسده المنهك على الأرض واضعًا يديه تحت رأسه، وغاصت عيناه في نوم عميق بجوار طعامه الذي لم يأكله.

كان القمر مختفيًا والليل مظلمًا، فزَّ من نومه فجأة على دبيب قوي بجوار غرفته، حدَّث نفسه هامسًا:

ـ من يأتي إلى هنا الآن؟ وما هذا الدبيب؟

رمى أذنيه في كل الاتجاهات يتنصَّت للصوت، اقترب من باب غرفته بحذر، ثم فتح الباب بحرص شديد ضاغطًا على القفل المحكم حتى لا يصدر أزيزًا، تحسَّس الأرض يضع قدمًا ويرفع أخرى، كان صوت الدبيب يأتي من ناحية خزَّانات الوقود، تسارعت أنفاسه الحبيسة المكتومة بداخلها، وبيده عصا قد هذَّبها قبل ذلك ليستعملها في مآربه. اقترب من صوت الدبيب، ولكن صعبت عليه الرؤية، فاقترب أكثر في حذر، وعيناه تحدّق في المكان الذي يأتي منه الصوت، وما إن اقترب حتى وجد الناقة الوحيدة في المزرعة وقد تفلتت من عقالها، ثم مشت فانحشرت بين خزانات الوقود وبعض الخزانات الأخرى.

كانت الناقة مريضة، وقد تم عزلها عن باقي النوق حتى تبرَّأ من مرضها، تيقن منها وعرفها، فأسرع إليها ورمى العصا على فوره من يده، ودار حول المكان مرتبكًا حتى صار أمامها، واقترب منها وهي تطلق أنفاسها اللاهثة، رفع يديه ولمس وجهها، وقد لمعت عيناها في عينيه تستجديه أن ينقذها، كسرت لمعة

العيون حين التقت ظلمة الليل فاحتضنها، فهي الروح الوحيدة التي تتنفس معه في هذا المكان بعد أن أصبحت ناقة (فاطر) هي التي كانت في يوم من الأيام مزيونة، طويلة العنق، نحيفة متدلية البراطم، مكحلة العين ذات غارب مرفوع، وقد بيعت في عز شبابها وقوتها بأموال طائلة، فَكَمْ وضعت من حوارٍ، وأنجبت طوال حياتها، وها هي الآن وقد أشرفت على الثلاثين من عمرها، تسللَّ من بين رجليها بصعوبة بالغة، وجلس تحت بطنها جلسة القرفصاء، وأسند ظهره للخزّان، ورجلاه الطويلتان في الجانب الآخر، وأخذ يدفع بكل ما أوتي من قوة حتى يزحزح الخزَّان ولو قليلاً حتى يحررها.

استمر على هذه الحال كثيرًا، ولم يستطع فعل شيء، فالخزَّانات ممتلئة بوقودها، والناقة محشورة من بطنها، خرج من تحتها، وصعد فوق أحد الخزَّانين، وأسند ظهره لظهر الناقة، ثم دفع بقدميه وكرَّر ذلك عدة مرات، اختلطت أنفاسه المتسارعة من جرَّاء ما يقوم به بأنفاس الناقة عندما يرتدّ عليها الخزَّان بعد دفعه ثم تركه، لكنه نجح في الأخير ووقع الخزان وخرجت الناقة، فاصطحبها إلى حيث كانت وأوردها الماء، ومسح بيده عليها، واطمأن ثم عاد إلى غرفته.

∞

دائمة الفكر شاردة الذهن قليلة التركيز، هكذا أصبح حال سلمى، تحدّق عينيها في الفراغ، تفزع إن داهمها صوت أو فاجأها مناديًا، ليست كعادتها تقضي معظم الوقت وحدها في وجوم، قلَّ كلامها وعزَّ مزاحها، وخاصة بعد أن أرسلت

أمها صورتها لأم ناصر، التي بدورها سترسلها لولدها بدون علم سلمى التي لم تعلم إلا بعد أن أرسلتها، مما أغضبها كثيرًا وأنكرت ذلك على أمها التي تراه شيئًا عاديًا، أما هي فلا تراه كذلك، فقد سبَّب لها ذلك حرجًا، فوقفت أمام أمها للمرة الأولى بهذه الطريقة، واضعة يدها على خصرها ضاربة الأرض بقدمها عدة مرات؛ لتنبه أمها لما تقول، وبصوت ناعم عالٍ ومرتفع، هاتفة:

ـ لماذا أرسلتِ صورتي دون علمي وأخذ رأيي، ثم أين وجدتها وأنا أحتفظ بكل أشيائي بمعرفتي، ثم إن الصورة التي أخذتيها كنت مازلت صغيرة فيها، لقد كنت في الصف السادس الابتدائي، أيُّ خجل سببتيه لي؟ كيف تتصرفين بهذه الطريقة؟

لم ترد الأم وهي تسمع سلمى، فعاودت سلمى ونادتها مرة أخرى وهي في أوج غضبها، ولكن الأم أجابتها بهدوء تام ودون أن تنظر إليها، فقد كانت جالسة على قطعة خشبية في منتصف غرفة الطعام تصنع جبنًا:

ـ وماذا حدث؟ أرى الأمر عاديًا، فكيف لشاب أن يخطب ويرتبط دون أن يعرف البنت التي يخطبها؟

رفعت سلمى صوتها أكثر، واقتربت من أمها خطوة ضاربة الأرض بقوة؛ لتلتفت أمها لها، وتهتم بها وبما تقوله.

ومن قال لكِ أنى سأكون خطيبته يومًا، ليس له الحق أن يرى صورتي، وليس لكِ الحق أنت أيضًا أن تقرري عني، فأنا لست صغيرة حتى تتصرفين دون

الرجوع لي، ثم يرى ماذا؟ صورة طفلة!! من المفترض أن يراني كما أنا، فإن حصل وتقاربنا كان بها، وإن لم يكن فعلى الأقل يكون قد رآني على حقيقتي، وإلا نكون قد كذبنا عليه.

ردت الأم بنفس الهدوء المبالغ فيه، غير مكترثة بحالة الثورة التي عليها سلمى، وهي تشير بيدها دون أن ترفع عينيها:

ـ هذا ما قد حدث، وانتهى الأمر.

لم تدرِ سلمى أنه في هذه الأثناء كانت صورتها الصغيرة ترافق شريط التسجيل بالفعل في طريقها إلى ناصر مع أحد المسافرين الجدد إلى حيث يوجد.

نثر الحبوب في الأرض بعد أن تم تجهيزها، حبوب يعرفها وأخرى يجهلها، سقاها بالماء رشًّا وبالتنقيط نظرًا لطبيعة التربة الصحراوية، يومًا بعد يوم يراقب نبتها، يحدّق نظره في الأرض بعد عدة أيام أملًا أن يرى نبتة مما زرع، يراقب عن كثب، يبرك على ركبتيه، ويقترب بوجهه من الأرض، يهمس لها ألا تقسو على ما في بطنها فتقتله، يناشدها أن تتركه ينبت ويخرج للحياة، قائلًا لها:

ـ أيتها الأرض الطيبة، كما أخرجتِ هذا الماء العذب من بطنك أخرجي هذا النبات المنثور من تحت جفنيكِ، فهو ابنك لا تقتليه.

يرويها كل صباح باكر فرحًا بمنظر الماء البديع وهو يندفع بالرشاشات مكونًا سحابة مائية، ثم ينثر رذاذه الخفيف على وجهه، الأرض العطشى رغم أن الشمس بدأت تخفف من حرارتها في وداع فصل الصيف الملتهب.

تمر الأيام بطيئة ثقيلة حتى تقع عيناه ذات صباح على يرقات وبراعم شقّت الرمل، وخرجت تتحسس الهواء وتستنشقه، تهلّل قلبه فرحًا كما تهلل يوم أن خرج الماء ولمسه، ثم جثا على ركبتيه يلامسه بشفتيه ويقبله ويشمَّه بأنفه، ينمو النبات يومًا بعد آخر، شقَّ الأرض ورآه بالفعل فرحًا به كمن انقطع به الأمل في الإنجاب؛ فبشَّروه بأن جاءه الولد بعد أن استسلم لعقم زوجته، جرى حول الأرض المزروعة في جميع اتجاهاتها مغمورًا بفرحته.

جاءه صَيّاح بعد أن غاب عنه أيام طويلة، كان هو من ترتسم على وجه ناصر السعادة لمجرد رؤيته بوجهه الملائكي الدائم الابتسامة، فقد كان رقيق القلب والمشاعر، يجمعه الود مع ناصر، عندما رآه ناصر من بعيد ترك ما بيديه، وشق المزرعة حافي القدمين؛ ليقابله بخطى مسرعة نحو السيارة التي تمشي داخل المزرعة في طريق عُبّد لها.

ترجَّل صَيّاح من سيارته قبل وصول ناصر الذي اندفع نحوه، ثم احتضنه غير عابئ بثياب ناصر البالية، ولا رائحة عرقه التي تفوح منه، ولا خائف على ثوبه الأبيض الناصع، ورائحة العطر التي تفوح منه، ثم أمسك بيد ناصر الخشنة، واصطحبه نحو السيارة اصطحاب الأب لابنه، وتناول منها العصائر الباردة وفطائر السكر والعسل، وأجلس ناصر بجوار السيارة حيث تحجبه عن الشمس، وهو يردف قائلًا:

ـ سنتناول غذائنا سويًا، فقد اشتقت لحديثنا سويًا.

قالها ثم فتح له العصير بنفسه وشرب معه، كانت جرعات العصير الباردة في ذلك الجو، وذاك الوقت سلسبيلًا يروي عروقه الجافة المحطبة، وما إن انتهيا حتى وقف صَيّاح، وهو يشير لناصر هاتفًا:

ـ الليلة ستكون برفقتي، وسأعيدك غدًا بعد صلاة الظهر.

نظر ناصر ولم يتكلم، غير أنه فرح أنه سيخرج من هنا ولو لوقت قصير، فقد طال به الوقت هنا، ولم يرَ أحد غير مشعل يمرّ بمزرعته، ويجلس في استراحته برفقة أصدقائه، وعامله الهندي المصاحب له.

همَّ ناصر ليأخذ بعض مستلزماته معه، لكن صَيّاح أشار له بيده أن يترك كل شيء، فانطلق بسيارته بصحبة ناصر مع الغروب، بعد أن تمَّ ناصر على المزرعة، وما إن وصل إلى الهجرة حتى استأذنه صَيّاح ليغيب عدة دقائق، ما لبث أن عاد بعدها سريعًا لينطلقا، وناصر يسأله في حيرة:

ـ إلى أين نذهب؟

حَوّل صَيّاح نظره إليه في بطء مبتسمًا، ويده تتحكم في مقود السيارة قائلًا:

ألا تريد أن تغير جو المزرعة، وترى بعض أصدقائك المصريين؟!!

هتف ناصر، وقد تعثرت الكلمات على شفتيه:

ـ بالطبع أحتاج أن أقابل مصريين، هذا لا يحتاج إلى أن تأخذ رأيي.

توقف صَيّاح أمام صالون كبير للحلاقة، ونزل من سيارته وقد أنزل معه ناصر، ودخلا على صاحب المحل المصريّ الذي يعرفه صَيّاح آنفًا، وعَرّفه على ناصر

الذي عانقه طويلًا وقد أخذهما سلام حار، فقد حنَّ ناصر إلى الملامح المصرية واللهجة التي غابت عن أذنيه طويلًا، ورغم أنها المرة الأولى التي يلتقون فيها إلا أن سلامهما يوحي أنهما يعرفان بعضهما منذ عدة سنوات وليس الآن، إنها القلوب حين تلتقي ويمتزج صفاؤها كماء عذب امتزج ببعضه دون حدود، قصَّ شعره وهذَّب لحيته الخفيفة، فنضَّر وجهه وانتفخت أوداجه، وخرج إنسان آخر غير الذي دخل، فقد مكث في المزرعة قرابة الخمسين يومًا أو يزيد.

وما إن انتهى حتى اصطحبه صديقه صَيّاح بعد أن ودَّع صاحب المحل على وعد باللقاء ثانية، وانطلق به إلى محلات الملابس؛ ليشتري له ما يلزمه من ملابس وأحذية تناسبه وتناسب عمله، حتى متطلباته الشخصية لم تفت على ذلك الولد الصغير، فأخذ له المنظفات والصابون والشامبو، ولم يدَّخر جهدًا في إسعاد ناصر، وإكمال ما يحتاجه، وناصر بدوره يهتف له:

ـ كفى كفى هذا كثير.

ولكن صيَّاح لم يسمع له، غير أنه أردف قائلًا:

ـ الخير كثير، لا تحمل همًّا.

وما إن انتهيا حتى أخذه إلى مطعم فخم، وطلب له كل ما لذَّ وطاب، فاستكثر ناصر على نفسه ما يراه من هذا الشاب العطوف، متسائلًا في نفسه:

ـ كل هذا من أجلي؟!

وما إن انتهيا من طعامهما حتى أخذه صَيّاح إلى ذلك البيت الذي قضى فيه ليلة وصوله، وتقابل هناك مع أناس من بلدته. دقَّ الباب ودخل إلى البيت بعد أن تركه صديقه على أن يعود له لاحقًا، ولكن صدمه فتور المقابلة، حيث سلَّم عليه الرجل وهو مستلقٍ على سريره يشاهد التلفاز، وقد مدَّ يده من تحت فراشه؛ ليسلم عليه دون الوقوف له والاكتراث لوجوده، مما جعله يشعر بالخجل والحرج الشديد، وأثناء جلوسه لم يحادثه ويسأل عنه، ولكن ظل محدِّقًا في التلفاز، حتى أنه لم يتخلَّ عن جهاز التحكم من يده، وبعد قليل من الوقت أشار عليه إن كان يشرب شيئًا أم لا، وهنا استأذن ناصر ليخرج مستاءً مستغربًا من سوء المقابلة، رغم أن الرجل يعرفه جيدًا، ولم تكن هناك أي مواقف سيئة قد حدثت بينهما تجعله يقابله بهذا الفتور.

نهض ناصر، وقد همَّ بالذهاب؛ ليستوقفه آخر قد أتى لتوّه من الخارج، رحَّب به وألزمه أن يعود ليجلس ثانية، ثم قال له مشددًا:

ـ لن تخرج من هنا حتى يجهز الطعام ونتقاسمه سويًا.

فقد كان هو الآخر يعرفه تمام المعرفة، إلا أن ناصر اعتذر بأنه لا يملك الوقت، مردفًا:

ـ ما جئت إلا لرؤيتكم، وهذا يكفي.

قال الرجل:

ـ مكانك في أي وقت.

قالها ثم نهر رفيقه في البيت موبخًا إياه لتركه ناصر يمشي دون اهتمام أو القيام بضيافته، ونشب عراك بينهما، وعلا صوتهما مما أغضب ناصر وزاد من حرجه، فقد شعر أنه السبب في ذلك، وبين المقابلة الجافة والأخرى المرحبة شعر ناصر وكأنه رأى مصر كلها في وجوههم، ورأى أهله في عيونهم، فقد طمأنه الأخير على وعد بزيارته وإبلاغه بكل جديد يخصه.

عاد ناصر مع صَيّاح إلى الهجرة، وقد استقبله صَيّاح في مجلسه حيث أعد له القهوة والشاي، وقدَّم له التمر وحليب النوق بنفسه، ثم جهز له منامته حتى الصباح.

نام ناصر في تلك الليلة نومًا لم ينمه قط منذ أتى، كانت تلك السويعات بمثابة رحلة ترفيهية غيَّرت من نفسيته وأعماقه الحزينة، وجددت نشاطه، وطمأنت قلبه القَلِق أن هناك من يهمه أمره، ويسأل عنه، بل يصاحبه.

عاد ناصر بعد الظهر إلى المزرعة بصحبه صديقه وقد حمل كل ما اشترى، بل زاد عليه صَيّاح من البيت فرشًا وأشياءً أخرى، وقد توطدت علاقته بصَيّاح وشعر بالأمان وهو هنا؛ لأنه على أمل أن يعاوده في أي وقت يقطع عليه وحدته، ويكسر عليه صمت المكان، ويشق السكون الذي يغلفه.

فرح ناصر بملابسه الجديدة، فاستبدل ملابسه الرثَّة وحذاءه البالي، ورتَّب غرفته من جديد، الآن تصلح ليسكنها آدمي.

اقترب شهر رمضان وأصبح على الأبواب، أيام قليلة هي التي تفصله عنه، ومما آنسه أيضًا تردد مشعل الدائم على المزرعة ليلاً مع رفاقه حتى وإن لم ينتبه لوجودهم، كثيرًا من الأحيان كانت توقظه ضحكاتهم العالية وتؤنسه، ولطالما وجد مخلفات الأطعمة، وزجاجات غريبة نفَّاذة الرائحة، تيقَّن ناصر أنها للشرب والسهر، فكان يتخلص منها بطريقته.

في صباح أحد الأيام، وأثناء عمله وبعد أن وضع للناقة الفاطر ما تأكله، وأوردها الماء وتركها ذاهبًا إلى عمله، سمعها تصدر صوتًا وهي تئن، وكأنها تريد إخباره بشيء فهرع إليها، أرادت أن تتخلص من عقالها، ففكها وتركها تمشي حيث تريد، مشت خطوات متعثرة للأمام، ثم مالت بجزعها ناحية اليمين غير مستقيمة تسرع وتبطئ، ثم تتعثر حتى انكبت على وجهها، فاصطدم صدرها بالأرض بقوة، حاولت النهوض وهو يركض يتابعها، حاول مساعدتها، ولكنه لم يستطع، فقد تمددت أرضًا وفشلت كل محاولاته ليوقفها ثانية، مرّ وقت قصير ثم فارقت الحياة أمام عينيه، فمسح على عينيها ووجهها بعد أن افترشت الأرض ممددة الأرجل فبكاها، أخبر صاحبها حين أتى، ولكنه لم يحزن عليها بل ربطها بسيارته الجيب، وجرَّها إلى حيث لا يعلم ناصر، الذي وقف مودعًا إياها حزينًا وقد غابت وسط هالة من الأتربة المتصاعدة وراء السيارة إلى أن اختفى بها عن ناظريه، ظل وحيدًا بعدها فقد كانت مؤنسته. فقد يجمعك بحيوان حب وألفة وشفقة ورقة في قلبك نحوه، تسعد حين تراه وتأنس

وهو يأكل حتى إن خريش مضغه يؤنسك، وهو يعرفك ينظر إليك ويمشي وراءك، وينتظر حضورك وهو بغير لب.

لم تطل وحدته إذ جاءه صَيّاح كعادته ضاحكًا صافي الوجه والقلب مداعبًا إياه، وقد ألقى السلام من بعيد، وما إن رآه ناصر حتى جرى إليه ليحتضنه، فثبَّت صَيّاح عينيه عليه، وهز رأسه وهو يردف، قائلًا:

ـ عندي لك خبران، كلاهما أجمل من الآخر.

اشرأب عنق ناصر، واتسعت عيونه، وأرهف السمع، وهتف على عجل:

ـ جاءتني رسالة، أليس كذلك؟!

فضحك صياح مقهقهًا، وهو يردف في مرح:

ـ وكيف عرفت؟

هتف ناصر، وقد هزَّه الشوق:

ـ أرحني بالله عليه، هل جاءت رسائل لي؟

لم يطل صَيّاح على مَنْ جفّ عنه الشوق، وآلمه الفراق وانتظر فرحته في خبر يأتيه، فأخرج من جيبه رسالته التي اختطفها ناصر بدوره من يده، كان لون الظرف الأبيض في الأزرق له وقع الفرحة والسعادة عليه، حيث كانت الإجابة عمَّا أراد إجابة عنه، نعم رسالة أمه بيده، وبدون أن ينتبه احتضن الرسالة بل شمها وتحسسها، وفجأة توقف عن فرحته، وانطفأت غبطته، ووجم فمه ونظر إلى صَيّاح بعيون باردة:

ـ لكن هذا شريط كيف أسمعه؟

لم يقطع عليه صديقه فرحته، بل جعله يكملها، ثم هتف:

من أجل ذلك جئت لك بهذا.

ـ قالها وهو يُخرج جهاز تسجيل وأعطاه له، مما جعل ناصر يقفز عاليًا، ثم يقبّله دون أن يدري، فمدَّ له شريطًا آخر، قائلًا:

ـ هذا القرآن كي يؤنسك في وحدتك.

ضم ناصر رسالة أمه إلى صدره، قائلًا في لهفة:

ـ أُنهي عملي وأجلس أسمعه، لا أسمعها أولًا، فليس لدي صبر حتى أنهي عملي.

قالها ثم مشى وترك صديقه واقفًا، لكن صَيّاح ابتسم، قائلًا:

ـ إلى أين؟ ألا تريد أن تعرف الخبر الثاني، أم أن هذا الخبر يكفيك؟

رد ناصر، وهو شارد الذهن:

ـ بالفعل هذا يكفي، ولكن ما هو؟

فأخبره صَيّاح، قائلًا:

ـ إن المُزارع الهندي الذي سيساعدك في المزرعة قد شارف على الوصول، وما هي إلا أيام قليلة، ويكون معك هنا.

تضاعفت فرحة ناصر بهذا الخبر لكيلا يقضي شهر رمضان وحده، أخيرًا سيأتي من يؤنس وحدته، ولكنه هتف في نفسه، وهو يتطلع إلى صَيّاح بامتنان:

ـ صَيّاح لم يجعلني وحيدًا، فهو يهتم ويسأل ويتردد عليّ بكل شيء يسعدني، هكذا الصديق يبحث عن سعادتك ولو بأقل شيء.

تركه صَيّاح بعد أن أبلغه مبلغه من الفرحة، ظل ناصر مغمورًا بفرحته، وقد أسرع إلى المزرعة لإنهاء عمله الذي لم يستطع إنهاءه، حتى عاد إلى الغرفة وأراد تبديل ملابسه، ولكنه لم يفعل بل أوصل تيار الكهرباء إلى التسجيل، وأغلق غرفته عليه غير مصدق أنه الآن سيسمع صوت أمه وأخوته، ضغط زر التشغيل، وبدأ الشريط في الدوران وهو يراقبه، وقد دنا برأسه من التسجيل خشية أن يفوته شيء، أصدر الشريط أزيزًا وتشويشًا عاليًا وهو في قمة انتباهه حتى أتاه صوت أمه من بين أزيز عجلة السحب وتشويش الشريط.

اقترب أكثر، ودَّ لو احتضنه، إنها أمه، صوتها وأنفاسها بذاتها، صوتها الشجي ونبرتها العذبة، ألقت السلام فردَّ عاليًا، ثم ألقته ثانية فردّ بصوت أعلى خرج منه مبحوحًا بعيون دامعة، وقلب خافق، ونبضات متسارعة، ثم هتف بصوت أعلى:

ـ أوحشتني يا أمي.

في الليلة التالية، وبينما مشعل مع رفاقه في استراحته بالمزرعة، نظر من بعيد، وقد وجد شعاع النور يشق جدران غرفة ناصر في وقت متأخر من الليل، فهتف في نفسه:

ـ لماذا لم يَنَمْ هذا حتى الآن؟

حملته قدماه إلى هناك، دنا من الباب واقترب بأذنه أكثر فسمع صوتًا لم يستطع تمييزه صادرًا من داخل الغرفة، أخذه الفضول أن يعرف مع مَنْ يتكلم، فدقَّ الباب وقد انتبه ناصر واعتدل وأنصت جيدًا؛ ليعاود مشعل الطرق على الباب، ولكن بشكل أقوى مما سبق، فضغط ناصر زرَّ الإيقاف على التسجيل، وقام متوجسًا ومشى خطوتين ثقيلتين ناحية الباب، وقد هتف من مشعل من وراء الباب:

ـ افتح هذا الباب اللعين.

فتح ناصر الباب بعد أن عرفه من صوته، كان ناصر في حالة يرثى لها، فقد احمرَّ وجهه، واكتست عيناه بلون الدم من شدة البكاء تأثرًا بصوت أمه وأخوته، ولكن حالته لم تشفع له عند ذلك الرجل صاحب القلب الغليظ الذي وجد جهاز التسجيل، ووصلات الكهرباء والألبسة بالغرفة والمأكولات المختلفة، بعد أن مسح جوانب الغرفة بعينيه الطائرة فوق وتحت، حتى أنه انحنى تحت السرير وفتَّشه، ثم أدار وجهه باتجاه ناصر الذي كان وجهه مغطى في هذه اللحظة، بينما كان يكمل ملابسه، حيث كان بملابسه الداخلية الخفيفة التي يظهر منها معظم جسده، قائلًا له بصوته الأجشّ:

ـ من الذي أتى بكل هذا؟

لم يدع ناصر يجيب، بل أردف في غضب:

ـ لا أحد غيره، ذلك الصبي المدلَّل الذي لا يعرف أي شيء، أنا سأتصرف معه.

قالها ودارت يده بمنتهى القوة، مهشَّمة كل شيء؛ ليقلب الغرفة رأسًا على عقب وقد أطاح بكل شيء، حتى جهاز التسجيل أطاح به في وسط الغرفة، وقد وقع معه قلب الشاب إذ أنه الشيء الوحيد الذي يؤنسه ليس لقيمته ولكن لأهميته، ومشعل يرفع من حدة صوته، قائلًا في عصبية:

ـ متى أتى هذا الولد هنا؟

رد ناصر الذي يراقب بعينيه دون أن يرمش أو ينطق بكلمة، مجيبًا:

ـ لقد جاء بها قبل يومين.

حدَّق مشعل بنظره في وجه ناصر الذي لم ينتبه له عند دخوله:

ومتى قصصت شعرك؟

قبل أيام قليلة.

احتدَّ صوت مشعل، وهو يهتف في غضب:

ـ مع من وأين؟

لم ينتظر إجابة ناصر، وهو يجيب نفسه:

ـ هو أيضًا، أليس كذلك؟

خرج غاضبًا، وقد سحب الباب الحديدي وراءه مصدرًا صوتًا يصم الآذان، وهو يهتف:

ـ أنا سأريك يا صَيّاح كيف تتدخل في شؤوني وفي أشياء لا تخصك.

في اليوم التالي دخل مشعل على والده الشيخ في مجلسه قبيل صلاة المغرب، حيث إنها من الطقوس والعادات أن تشبَّ النار، وتصنع القهوة ويصلح الشاي يوميًا وبصفه دائمة في مجالسهم، يرحبون بكل من أتاهم أيّما ترحيب، دنا من والده الذي انتهى من احتساء قهوته، وقد خفض رأسه قبل أن يخفض صوته، ثم قال:

إن ابنك صيَّاح يشغل العمّال، ويحيدهم عن أعمالهم.

قالها وقصَّ عليه ما حدث، ثم أردف:

ـ إن ذلك حدث سابقًا في المزارع الثلاثة الأخرى أيضًا، إنه يصرّ على التدخل في العلاقة بيني وبين العمال.

مما جعل الأب ينادي ابنه الموجود في المجلس عند مشبِّ النار، فترك صَيّاح ما بيده، وجاء مسرعًا أمام والده الشيخ، خافضًا بصره احترامًا له، فهتف الشيخ:

ـ يقول أخوك إنك تذهب للعمال، وتشغلهم عن عملهم.

هنا تدخل مشعل، لكن الأب رفع يده فسكت، وطلب من صَيّاح أن يتحدث، فقال:

ـ إن العامل الجديد في المزرعة الكائنة غرب الهجرة يعيش وحيدًا منذ شهرين، وليس معه من يؤنسه مثل المزارعين في المزارع الثلاث الأخرى التي يوجد بها ثلاثة وأربعة عمال، أما هو فيجلس وحيدًا؛ نظرًا لأن المزرعة جديدة وقيد الإنشاء.

اتَّجه الشيخ بنظره ناحية ابنه الأكبر، هاتفًا:

ـ وأين باقي عمال هذه المزرعة؟

أجاب مشعل:

ـ إن العامل الهندي سيأتي عما قريب، فقد انتهت أوراق استقدامه، وأصبح على وصول.

أشار الأب إلى ابنه الأصغر، قائلًا في حسم:

ـ لا تذهب إلى هناك ثانية، ودع أخاك يدير العمل كما يرى.

الفصل الخامس

كان يوم الأحد الأول من رمضان، وقد اختلس صديقه صَيّاح زيارة خاطفة إليه في ذلك اليوم، كان لقاؤهما حارًّا بطيبة قلبيهما، وقد زوده صَيّاح ببعض ما يحتاجه في صيامه من أطعمة وتمور وحلوى مختلفة أكثر وأجود مما كانت لديه، وقضى معه بعض الوقت، ثم ذهب عنه بعد العصر بقليل.

اقترب اليوم من الرحيل، ولوَّحت الشمس براحتها إلى أن تعود لاحقًا، وهو يسمع صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد بتلاوة رائعة وندّيّة، كان يصدر الصوت من التسجيل الذي كُسِر بابه بعدما ركله مشعل، فكان يضغط الشريط بداخله لا يعرف متى يؤذَّن المغرب، فليست هناك مساجد قريبة، أعدَّ طعام إفطاره ورتبه قبيل المغرب، ثم خرج يراقب الشمس لعله يهتدي إلى شيء يخبره بوقت الإفطار.

غابت الشمس وأرخى الظلام ستائره الخفيفة على الكون، فجلس أمام طعامه، وقد ربَّع قدميه ونظر إلى طعامه، وحدَّق النظر فيه، تذكر أهله خاصة قبل قدوم

رمضان، وأول أيامه الرائعة وروحانياته وقرآن ما قبل المغرب بصوت المرحوم الشيخ محمد رفعت، كان يسمعه في كل بيت، وبينما تمر في الشارع تسمعه، وما أن يبعد عنك الصوت حتى يقترب من بيت آخر، لمة الأهل على مائدة واحدة.

تذكر تلك الأيام، فانسابت من عينيه الجامدتين دمعتان حارتان نزلت من أطراف عينه لم يمسحها، بل قام مهرولًا إلى الفضاء، يتلمّس نسمة هواء باردة، لعلها تبرد قلبه الحار، ولهيب صدره المحترق، حنَّ إلى صوت أمه فسمعه، ثم احتضن التسجيل وقد أمطرت عيناه دموعًا شقت طريقها في خده، ثم انجرفت إلى قلبه المتهالك فأحس أن نسمات الهواء قد نضبت من جديد.

أيُّ ثمن لكل هذا؟ وأيُّ مقابل يعوض ذلك البعد المرير والوحدة القاتلة؟ بضع جنيهات تعوضه، كم تساوي كل دقيقة بعيد عن أهلك وأحبابك؟ الغربة قبر على وجه الأرض، يراك الناس وأنت مدفون، وتكلمهم وأنت ميت، وتضحك وأنت تحتضر، وتموت حتى يعيش غيرك.

نعم إنها الغربة القاسية.

كانت مصر تتأهب لهذا الشهر، بعادتها وتقاليدها، وبطريقتها الخاصة التي تختلف عن سائر بلاد الدنيا، تتأهب وتستعد قبله بأيام طويلة. تتأهب الشوارع فتفرح وتتزين الطرقات، فتبتسم ووجهات البيوت فتضحك، والقلوب

فتنشرح والمدن فتتحلى، والقرى فتسعد، والناس فتستعد بحبها لبعضها وتسامحها وتآلفها.

عطف الكبير على الصغير، ونظرة الغني على الفقير، الكل سعيد على طريقته، لكن هذا البيت مثله مثل مئات البيوت التي فارقتها قلوبها، وغادرها أحبابها، وهجروها كما تهجر الطيور أعشاشها، وتتركها غير نابضة فوق غصنها النضر، بيت أم ناصر الذي خيَّم عليه الحزن، وغابت عنه الابتسامة حينما التفَّ الأبناء الثلاثة حول طاولة الطعام، وأمهم رابعتهم في سكون تام، لا يقطع صمتهم صوت المذياع عندما يتلو آيات من القرآن، أو وشوشة الراديو العالية، وصفيره الذي يظهر جليًّا بين كل آيتين.

وبينما هم كذلك ينتظرون ميعاد إفطارهم، فرّت من عينيها دموعًا حارة، عصية على الهطول، سبقت دموعها التي أخذت في انهمارها مدفع الإفطار، فشقت طريقًا في صحراء خديها روته بدموعها الملتهبة، مما زاد من حرارة وجهها المتَّقد، انهمرت دموعها التي أخذت طريقها قبل أن تلحقها راحة يدها إلى شفتيها التي ابتلَّت على غير موعد، وذاقت مرارتها قبل إفطارها بحلو قد أعدته.

حركت يدها على طاولة الطعام تقرب لكل واحد طعامه وشرابه المفطر منهم والصائم، مخفية بذلك صفحة وجهها عنهم، لكن فاجأتها صغيرتها هاتفة:

ل ـ ماذا لم يأتِ أخي ناصر ليفطر معنا؟

تحجَّر الكلام في حنجرتها، فلم تستطع الجواب، أو أن تبلع ريقها المر؛ فيخفف من حنقها وحزنها المرير، ابتلعته علقمًا بعد أن استنشقت من الهواء ما يملأ صدرها المحترق، مختلطًا بماء دموعها، قائلة:

ـ لا يا حبيبتي، هو سيأكل في مكان آخر.

لتعيد الصغيرة ببرائتها:

ـ أليس من المفترض أن يأتي؛ ليأكل ثم يعود.

لترد الأم المتشبثة بقوتها:

ـ هو سيأتي فيما بعد.

لم تكف الصغيرة، واستمرت في تساؤلها:

ـ أين هو يا أمي، فأنا لم أره منذ وقت طويل؟

لترفع الأم صوتها المحبوس الآتي من بئر قلبها السحيق وأعماقها البعيدة:

ـ كفى، قلت سيأتي فيما بعد.

لتترك الصغيرة ملعقتها التي بيدها، وتسدل رأسها الصغير على صدرها حزنًا من نهر أمها لها، فقامت الأم والتقطتها واقفة، ثم احتضنتها وغسلت شعرها الجاف ذو الضفيرة الملتفة بدموعها.

لم يأتها رد من ولدها الذي قارب على الشهرين لم تعرف عنه شيئًا، ملتاعة بفراقه ومتأوهة ومعذبة ببعده، ومما زاد هذا عدم تواصلها معه. كانت ترى ابنها في عروسه غير الرسمية التي خطبتها له، ولم تعرض عليه ذلك، أو حتى تعرف

رده، فقط أخبرته عنها في رسالتها المسموعة، وتنتظر منه جواب يطمئنها، وقبول يفرح قلبها الحزين.

كانت تراه في أصدقائه الأوفياء حينما يسألون عنها، وعمَّا إذا كان ينقصها شيء، فكانت تبادرهم بالرد بأنه لا ينقصها شيء غير أن تراهم بخير، فهي ترى فيهم ناصر، وتطلب منهم ألَّا يتأخروا حتى تراهم.

كانت دائمة الزيارة للعروس بفطرة الأم البسيطة، تحمل الحلوى كما لو أنها طفلة صغيرة تدللها وهي كذلك، تتودد إليها وتحادثها تملي ناظريها برؤيتها، وتتمنى اليوم قبل الغد لو أنها زوجة لولدها، فيما كانت سلمى نفسها تنتظر نفس الشيء الذي لم تقتنع به، وهو أن يخطبها أحد بتلك الطريقة عن طريق صورة، فضلًا عن أن الصورة لها وهي طفلة في السابعة من عمرها.

تحدثت الأم معها عن ولدها، وعن أدبه وأخلاقه والتزامه وجديته في الحياة، وما يترتب عليه بعد زواجها منه، فسيبادلها الحب والخوف عليها، ويكون لها سندًا وبيتًا تملؤه المحبة والألفة، وسلمى جالسة ملتصقة القدين، وقد غاصت أصابعها في نسيج ثوبها تلفه مرة يمينًا ومرة يسارًا، ناظرة إليه دون رد.

أتراه حبًا بالإنابة أن يحب شخص نيابة عنك، أن يتكلم بلسانك، أن ينقل مشاعرك عنك، أن يتفوَّه بما لا يدور في عقلك، ويهمس بما لا يحس قلبك، أيُّ زمان وتحت أي ظروف يحدث هذا حتى ينوب عنَّا الآخرون في مشاعرنا وأحاسيسنا وأدق تفاصيل قلوبنا، فقد ينوب عنّا صديق في وظيفة، أو أخ في

مناسبة، أو قريب في مهمة، أما أن ينوب عنك أحد في مشاعرك، أيُّ بُعد هذا وأيُّ حرمان، وأيُّ تجميد للمشاعر حتى تسري والأحاسيس حتى تتدفق، والحب حتى يقع؟!

ه

وصل العامل الأسيوي بعد انتهاء الثلث الأول من شهر رمضان، رآه ناصر على هيئته تلك، فتذكر يوم أتى هنا حاملًا حقيبته ومعه حزنه. نزل مشعل من سيارته، سيارة غير الأولى لكنها فارهة أيضًا، اقترب ناصر فور رؤيته، لم يرفع مشعل يده بالسلام ولا حتى مدَّها واكتفى بكلمة السلام، كان ناصر قد اقترب فرد بدوره التحية، ثم وجَّه مشعل ناحية السيارة، قائلًا:

ـ انزل العامل الهندي إلى الغرفة، واحمل معه أغراضه، وجهّز له مكان ينام فيه معك.

كان ناصر يسمع ما يقال له، وقدماه تتحرك ناحية السيارة التي فتح بابها؛ لينزل منها العامل وأغراضه إلى حيث يسكن، وقد لحق بهما مشعل، هاتفًا في ناصر دون أن يذكر اسمه مكتفيًا بإشارة إليه:

ـ هذا العامل سيساعدك هنا، وسينام معك ويعمل معك، عليك توجيهه وتعليمه ماذا يفعل.

أعطاه مشعل بعض التعليمات التي سمعها ناصر بإنصات، وعيناه تراقبان مشعل وهو يشير بيده اليمنى هنا، ثم ينزلها ويرفع اليسرى ويلتف ثم يستدير،

يمشي ثم يقف، يتكلم ثم يسكت ثم يعيد ما قاله، وناصر يتابع، والعامل هناك في الخلفية القريبة يراقب بدوره رد ناصر، حتى استقل مشعل سيارته التي اقترب منها أثناء شرحه لينطلق بها.

فرح ناصر لوجود رفيق له، فقد أصبح هناك من يشاركه وحدته، يتحدث إليه، يمشي معه، يشاركه طعامه ونومه، خاصة بعد أن تأهلت المزرعة بمعداتها، وبدأت زروعها الورقية تغير ملامحها الصمّاء، وقطيع من الأغنام يصدر صوتًا يقطع السكون، نعم قد استوت ودبت فيها الحياة بعد جهد جهيد وتعب شديد، والآن تكتمل برفيقه.

رحَّب ناصر به، وأشار إليه بالدخول بعد أن فتح الباب، وتنحّى جانبًا دافعًا الباب بإحدى يديه؛ ليدخل الضيف أولاً مُرحّبًا به ترحيبًا متكررًا، جلس الرجل على سرير ناصر، فهو الشيء الوحيد المرتفع عن الأرض في الغرفة المؤهلة للجلوس، وما زال ناصر يرحب به، وهو يجلس أمامه على الأرض رافعًا رأسه نحوه، ويسأله:

ـ من أين أنت؟

لم يرد عليه العامل فعاد وطرح عليه سؤالاً آخر، ولكن سكوته لم يتغير، وكذلك نظرة عينيه المتحجرة، كان السؤال الثالث أكثر حدة وأعلى صوتًا، وقد حدَّق فيه ناصر وهو يهتف، قائلًا:

ـ لماذا لا تتحدث؟ هل تسمعني؟

ظن ناصر أنه لا يسمع، ولكنه حدّث نفسه:

ـ حتى إن كان لا يسمع، يجب أن يتكلم فهو يراني أسأله.

انتصف العصر فقام ناصر بعد أن أشار إليه أن ينام في فراشه ليستريح، ربما صدمه المكان وبُعده وتعب السفر ووعثائه، ربما يكون قد حلَّ به ما حلّ بناصر من قبل، فقام يعد طعام إفطارهما، غابت عيون العامل مع غياب الشمس للمبيت، فأيقظه ناصر للإفطار فأكل، ولكنه ما زال صامتًا.

قبل أن ينسدل ثوب الشمس من جديد على جسد الأرض فيكشفه، فتح ناصر عينيه المثقلتين، وما زالت رأسه مستقرة على مخدع نومه، حدَّق بنظره في سقف غرفته المرتفع حيث إنه نام ليلته على الأرض، وترك للعامل مكان نومه، لكن ضباب النعاس الذي أفاق منه ما زال حاجزًا بينه وبين رؤية أي شيء، وضوء الشمس النائمة لم يتسلل بعد إلى الغرفة من ثقوب السقف المعدني، أو شقوق جدارها الشرقي، قام بهدوء واعتدل جالسًا، فتبينت له معالم المكان، رفيق يتنفس معه، يا لها من سعادة!! فرك وجهه بكفيّه استجلابًا للنشاط، مشى نحو الباب على أطرافه خشية أن يوقظ الرجل، فتح الباب على مهل ليحد من أزيزه المزعج، حاملًا منشفته على كتفه، مترنّحًا غير متوازن يشوبه التعب والإرهاق في طريقه إلى الحمام، نضح الماء على وجهه حتى استفاق، فالماء حياة جديدة.

عاد بنفس الحذر لكن أكثر نشاطًا، دفع الباب بهدوء تام، كأنما أراد الاستئذان للدخول، فقد أصبح معه شريك بمسكنه، وجد رفيقه جالسًا حيث كان ينام

ناصر في وسط الغرفة على الأرض، مقرفصًا ركبتيه حتى تكاد تلتصق بصدره، وقد اختفت بطنه وانزوى جزعه، والتفّ ساعداه السمراوان حول ركبتيه فحزمهما بيده، تقبض يد على معصم الأخرى، وقد خفض بياض عينيه من ظلمة المكان، وانسدل شعره الأسود الناعم على اتجاهات رأسه، وأخذ شاربه الكثيف حيّزًا كبيرًا من وجهه، فغطى شفته العلوية مع فمه، وارتخت شفته السفلى؛ ليظهر بياض أسنانه من بين سواد شاربه.

رفع ناصر يده اليمنى ملقيًا عليه السلام بعد أن تفاجأ بوضعه وجلسته، اكتفى الرجل بهز رأسه مرتين ناحية اليمين تتوسطهما أخرى ناحية اليسار، هتف ناصر فيه بعد أن أضاء الغرفة، وجلس أمامه واضعًا يده على ركبتيه محدقًا في وجهه، وبلهجة مصرية خالصة:

ـ لماذا لا تتكلم، وتصرُّ على الصمت؟ بالأمس اعتقدت أنك قد تكون متعبًا، لكنك اكتفيت من النوم، هل تسمعني؟ هل أنت تتحدث أصلًا؟ هل بك شيء؟

لم يرد، وكرر هزة رأسه ثانية، فوقف ناصر مكانه حيث كان يرتكز على أطراف قدميه، وصوَّب نظره في الجدار المقابل، ثم قال:

ـ أعرف لِمَ لا تتكلم؟ لقد صدمك الوضع وأسكتك المكان؛ لذلك أنت حزين تضرب عن النطق.

ثم سأله بعد أن أدار نفسه يمينًا، وخطى نحو سريره يرتبه.

ماذا كنت ستفعل لو جئت وحيدًا هنا دون تلك التغيرات التي حدثت، والتأهيل الذي طرأ على المكان حتى أصبح كما هو الآن؟

كان ناصر يتكلم ولا يدري هل يسمعه أم لا، فاستدار إليه وهتف، قائلًا:

ق ـ م وانضح وجهك بالماء وتوضأ.

لم يقم العامل فجذبه من يده، بعد أن فكهما وسحبه برفق ناحية الباب، وأشار له على الحمام، وقد استعمل كفيه ليفهمه أن يغسل وجهه، فذهب في حين ظل ناصر واقفًا على عتبة الباب، هاتفًا في نفسه:

ـ أنت الونيس هنا، كيف وأنت لا تتكلم؟

ظل ناصر واقفًا على عتبة الباب، حتى أتى العامل يتهدّل في مشيته، يتمهّل في خطواته، انتظر حتى وصل واقترب منه، وعيناه لا تفارق خطواته المثقلة، وكأنه يسمع وقع أقدامه رغم أن الرمال الناعمة تحبسه تحتها كلما دهسها.

تحدَّث إليه ثانية، لكن هذه المرة بلهجة أقوى ونبرة أعلى، وقد قبض بكفيه الضخمتين على انحناء كتفيه وهزهما بقوة، محدّقًا في عينيه، وقد اقترب منهما أكثر:

ـ تكلم يا أخي، لماذا لا تنطق ولو بكلمة؟ حتى لو أنك لا تفهمني، تكلم بلغتك، أشرّ بيدك، منذ الأمس وأنت لم تحرك شفتيك.

فاجأه العامل بحروف لم يفهمها ناصر، لقد تحدث أخيرًا وهو يأخذ طريقه إلى الغرفة، متجاوزًا ناصر بعد أن أزاح يديه من على كتفه، واصطحبت كلماته المبهمة هزات رأسه الثلاث، لم يعبأ ناصر لدفعته له، فخطى وراءه، هاتفًا:

ـ إذًا أنت تتكلم، هذا يعني أنك تسمعني، ولكن لا تفهم ما أقول.

لم يرد العامل، فأردف ناصر قائلًا، والأخير يعطيه ظهره:

ـ ما اسمك؟

لم يجبه فخطى خطوة أخرى، هاتفًا:

ـ قل ما اسمك؟

قالها وهو يلتف ليكون أمامه، وقد أشار بيده، ونقر بأطراف أصابعه على صدره، قائلًا:

ـ أنا اسمي ناصر، أنت ما اسمك؟ هل تفهمني؟ أنا أنا ناصر.

نطقها وهو يطيل في حروفها لعله يسمعه أو يفهمه، خطف الأخير اسمه في حروف ملتفّة كأنها حروف مهروسة سقطت من شدقيه، ولكن ناصر لم يفهمه لم يدر إن كان يقول اسمه أو لا، وقتها أحسَّ بعجز لم يمر عليه، عجز أن يفهم سؤاله، ويأس من الوصول إليه وهو القريب منه بل إلى جواره، شعر أن المسافات طويلة بطول الأميال التي تفصله عن وطنه، وأن الأمل الذي عقده على وجوده قد تلاشى، وسحب اليأس إلى صدره مع تلك الهوّة العميقة بينهما، يراه أمامه يلمسه تتلاقى أعينهما، لكن المسافات بعيدة لا تتلاقى، فالمسير إليها

صعب المنال، ارتدى ثياب عمله، وأمسك مقبض الباب بيده، وأشار بيده الحرة إليه، بعد أن جلس كما كان، قائلًا:

ـ استرح اليوم، أو استرح كما شئت حتى تتعود.

وأخذت أصابعه المصفوفة تشير إليه بالمكوث كطائر حط لتوّه على جزع خاوٍ يتلمّس راحة يتمناها، أو ركن يطمئن إليه، وهو يردف قائلًا:

ـ هل تفهمني؟ أنت متعب فلتظل حتى ترتاح.

تابع الرفيق بعينين صامتة لا ترمش، وقد علقت أجفانها بحاجبيه خشية أن تسقط؛ فينطفئ وجهه بإغماض عينيه، وقد صك ناصر الباب وراءه متمتمًا في يأس:

ـ حتى إذا أتوا بمن يؤنسني جاءوا به معتوهًا أو أصمًّا لا أدري.

قالها واتجه إلى عمله..

ـ السلام عليكم

نطق بها صَيّاح مطولًا بعد أن دفع الباب برفق دون أن يطرقه، وأدخل نصف رأسه إلى الداخل، حينها فز ناصر واقفًا كمن صعقه تيار كهربائيّ ليتعلق في رقبته، وبدوره طوقه صَيّاح بذراعيه، كان ذلك قبيل المغرب بقليل في اليوم السادس عشر من رمضان، لم يرد ناصر السلام من فرط فرحته، لكنه هتف:

ـ أين أنت يا رجل؟ أطلت غيبتك عليّ، لعله خير، أنت تعرف أنك من تصبرني على وجودي هنا.

أجاب صَيّاح والابتسامة لا تفارقه:

ـ لا شيء، فقط بعض المشاغل.

كان صَيّاح قد أخفى عنه رغبة والده في عدم التدخل في شؤون العمال أبدًا، ولكنه أردف:

ـ أنا الآن معك، وسأتناول معك طعام الإفطار، فماذا أعددت لنا؟

قالها ممازحًا صديقه مبتسمًا مشرقَ الوجه، ولكن ناصر صمت لوهله، ثم اختلق بسمة منزوعة، ورسمها على شفتيه ظهرت تحت وجهه الحائر، وهتف متلجلجًا:

ـ الخير موجود، كل ما تريد موجود.

لم يدع صَيّاح حالة الخجل هذه تطول، فقال:

ـ لا يا سيدي، فأنا اليوم الذي أعددت الفطور، وما عليك إلا أن تترك تكاسلك، وتأتي معي نحمله من السيارة.

لم يتحرك ناصر، فصاح فيه:

ـ ألم أقل لك اترك تكاسلك؟ تحرَّك يا رجل.

قالها وجذبه من يده ناحية السيارة وحملا الطعام معًا، كان من كل ما لَذَّ وطاب، اللحم والأرز والخبز الطازج حتى الحلوى لم تفوته، ووضع ناصر الطعام جانبًا، وبدأ في ترتيب الغرفة حتى تليق بالضيف في همة ونشاط، فقال صَيّاح:

دع كل شيء كما هو على هيئته، سأجلس هنا، لا عليك.

ولكن ناصر فرش له إحدى قمصانه الجديدة فرفض الجلوس عليها، ولكن إصرار ناصر جعله يستجيب له فجلس، ثم قال صياح لناصر:

ـ قبل أن تجلس افتح باب السيارة الخلفي وأتِ بما بها، هناك كرتوناتان.

قال ناصر في خجل:

ـ وهل بقي شيء؟ هذا يكفي، بل كثير.

لم تفارق صَيّاح ابتسامته العريضة التي طالما ارتسمت على شفتيه ووجنتيه، وهو يهتف به:

ـ اذهب يا رجل، ولا تجادلني كثيرًا.

كانت أطعمة جافة وتمور وأوانٍ منزلية تعينه في عزلته على العيش والتعايش، كل ذلك يحدث والعامل الهندي قد أخذ ركنًا يراقب بعيونه الصامتة، كان يراه صَيّاح لكنه لم يتحدث إليه بعد، رحَّب به وسأله عن اسمه فأجابه، وعن بلده فرد عليه، ثم سأله صَيّاح ديانته بلهجة يفهمها فصمت، كرر سؤاله وسأله عن ديانته، فأجاب:

ـ هندو...

كانت كل إجابة ترافقها هزات ثلاثة من رأسه في كل مرة، حدّق صَيّاح نظره في ناصر بعد أن وضع ما كان يحمله، فقد كان ثقيلًا أتى به على مرتين محنيّ الظهر، فوقف ثم استنشق هواء الغرفة كاملًا، ثم زفر به طويلًا وبعيدًا، فقال صَيّاح:

ـ هذا الهندي ليس مسلمًا، أنت تعلم ذلك، أليس كذلك؟

أجابه ناصر في استغراب:

ـ أنا لا أعرف كيف أتحدث معه حتى أعرف ذلك، لقد توضأت وصليت أمامه لكنه لم يفعل، إن كان غير مسلم، فماذا يكون؟ هل هو مسيحيّ؟

لا، ليس مسيحيًّا.

يهوديٌّ إذًا؟

أجابه صَيّاح:

ـ ولا حتى يهوديًّا.

اتسعت عيناي ناصر، قائلًا في تعجب:

إذًا ماذا؟ وما هي ديانته؟ ما أعرفه أن هناك مسلمًا ومسيحيًّا ويهوديًّا، وفي حياتي لم أقابل يهوديًّا ولا تحدثت إليه، لكني أعرف أصدقاء مسيحيين كُثر، أما هذا فماذا يعبد بالله عليك؟

أجابه صَيّاح بحذر:

ـ هندوسيّ!

كان وقع الكلمة على أذنيه ثقيلًا، فهو يسمعها لأول مرة، فهتف متسائلًا:

ـ وماذا تعني؟

ـ إنها إحدى ديانات الهند التي يعتقدونها.

ـ الآن، علمت أنه هندي وأنه هندوسيّ، ولكن ماهي عقيدتهم؟

ـ هم في الغالب يخفونها هنا، فهم يقدّسون الحيوانات كالبقر مثلًا، والنار والشجر والأنهار والشمس وغيرها.

ـ استغرب ناصر مما يسمعه، فهتف مستنكرًا:

ـ في أي زمان نحن حتى لا نؤمن بالله وحده؟

قالها ثم صمت ليستدرك بعد وهلة، متسائلًا:

ـ لقد فاجأتني، لا أدري ما الذي يجب عليّ فعله؟ فلا يوجد هنا إلا أنا وهو، كان الأجدر بكم أن يأتي رجل غير هذا.

فأجابه صَيّاح:

ـ عامله كما تعامله، وليرى الإسلام فيك، كثيرون منهم يأتون هكذا، ويعودوا موحدين وقد أسلموا، غير أنك لا تأكل معه في إناء واحد.

علقت الكلمة في ذهن ناصر، فقطع صَيّاح ذلك الحوار، وهو يهتف قائلًا:

ها قد أذَّن المغرب، هيا إلى الفطور..

بعد أن تناول طعامه وانتهى، ترك صَيّاح صديقه بعد أن أخبره أنه سيسافر عمَّا قريب إلى لندن لإتمام دراسته، مما أحزن ناصر حزنًا بالغًا، فاحتضنه طويلًا كأن ما بينهما ليست أسابيع معدودة لا تتجاوز الشهور الثلاث، رآه فيها مرات قليلة، لكنها القلوب الصادقة ليس لها مغاليق، تفتح فقط لمن يشبهها، نظر ناصر في وجه صياح، ثم احتضنه ثانية، خرج صياح من الغرفة بعد أن استلَّ نفسه من

بين ذراعيه بصعوبة، رافقه ناصر إلى السيارة التي هدر محركها، ثم ترك له صَيّاح تقويم العام، وفك ساعة يده ذات الماركة الغالية وأهداها له ثم انطلق.

بداية الأمر توجَّس ناصر من الهندي بعد أن علم كل شيء عنه، لم يخبره مشعل حتى باسمه يوم أن أتى به، تساءل في نفسه، كيف سيتعامل معه؟ ظل يفكر ويسترق نظرة إلى وجهه، ثم يلتقي بعيونه لوهلة، حدَّث نفسه أنه يبدو مسكينًا، مرت ساعة أو أقل منها، ليأوي كلٌّ منها إلى فراشه دون كلام.

شقوا الفجر لأعمالهم، ناداه ناصر باسمه لأول مرة فقد عرفه، لم ينطق الاسم مكتملًا (كيشنا)، التفت إليه، فنقر ناصر برأس إصبعه على صدره، وقال:

ـ أنا ناصر.

كان يبدو وكأنه لم يفهمه، فأعاد ثانية:

ـ أنا أنا ناصر.

خطى نحوه حتى اقترب، ونقر بنفس إصبعه على صدره، قائلًا:

ـ وأنت كيشنا.

ظل يكررها أملًا أن يفهمه حتى نطق كريشنا، وحرّك شفتيه المطبقتين منذ أن أتى:

ـ ناص...

ولم يكمل، ولكن ناصر قد سُرَّ كثيرًا عندما سمعه، وعلا صوته:

ـ نعم ناصر.

فأعاد الهندي ثانية:

ـ ناص...

نعم كما قلت.

مرت أيام تلتها أيام، كان مشعل يتردد خلالها كل ثلاثة أو أربعة أيام؛ ليزودهما بما يلزم من طعام أو احتياجات خاصة، كان شحيح اليد، بخيل الطبع، يابس القلب، صلب المعاملة، جاف الوجه.

ورغم البعد في اللغة واللهجة والهوة السحيقة في الدين، لم يكره ناصر الهندي بل عامله بالحسنى، يرفق به يتودد إليه، يطهو بنفسه الطعام ولا يرغمه على عمل فوق طاقته.

∾

طرق السهر أبواب عينيها، ففتحت جفنيها له فاستقر فيهما، ودفع النوم دفعًا خارجهما، حدَّقت في سقف الغرفة المُعتم، تمنت لو تراها سقفًا أنيقًا مشيدًا على جدران من القرميد والطوب الأحمر الجميل؛ ليليق بابنها، تقلبت على جنبها الأيمن، وأغمضت عينيها لكن السهر حال دون إغلاقها، تقلبت على جنبها الأيسر، بحثت عن النوم في طيات فراشها، فوق وسادتها أو حتى تحته، استجلبته لكنه فرَّ فرار غزال هارب من أسد أبى إلا أن يفترسه، قامت إلى صغارها تتفقدهم في زاوية غرفتها، مسحت بريشة يدها الحانية جباههم،

وسحبت برفق فراشهم عليهم، ثم ذهبت إلى غرفة المعيشة، الغرفة الثانية للبيت التي يستقر بها سرير ولدها، كان ما يزال على حاله دون تحريك، حتى فرشه تُغْسل ثم توضع كما هي، أرادت أن يبقى على هيئته، استلقت على السرير لعلها تجد راحتها فيه، سمعت أزيز أخشابه المتباعدة، وفراشه الساكن، فلم تغط عينها في نوم حتى الفجر.

بدأت دورتها المعتادة في أعمالها، وأمام البيت قد غرست شجرة صغيرة بعد سفر ناصر بأيام قلائل، شجرة من الساسابان جلست أمامها وهي تلمس جزعها الأخضر الصغير، وشعرها الرقيق المنسدل عليها تتحسسه بأصابعها برفق خشية أن تجرحها، ثم هتفت في أذنها هامسة:

ـ هيا يا صغيرتي أريدك أن تكبري، وتستقر جذورك في الأرض قوية، ويقوى جزعك وينسدل شعرك على كتفيك ويكثف أكثر، فأنتِ من عمر سلمى، غرزتك يوم زرتها للمرة الأولى.

هزَّ نسيم الصباح أوراقها الدقيقة وتمايلت مبتسمة، فابتسمت الأم لتمايلها ورسمت على شفتيها ابتسامة غائبة؛ فظهرت نواجذها، ثم أردفت:

ـ تمايلي وتراقصي، أضحكي واسعدي، استقبلي الصباح بنداه الرطب، اغسلي وجهك برحيقه، وبلّلي شعرك بعطره؛ لينضر وجهك ويصفو جذعك ويخضر، اجعلي من غصونك سكنًا للعصافير، ومن أوراقك فرشًا لهم، ومن الشمس إن

قست مأوى، ومن البرد إن اشتد مخبأ لهم، فلترمي ظلالك في كل الأنحاء ليستظل القاصي والداني، أتعرفين ما اسمك؟

شعرت وكأن الشجرة تضحك وتنصت لها وتسكن، فأردفت في سعادة:

ـ سلمى، اسمك سلمى، حتى يكون لديّ سلمتين، ما أجمل الاسم وما أرقه وأصفاه، سلمى من السلامة والنجاة.

لمست نسمة عابرة خد الشجرة، فتلفتت يمينًا ولمستها أخرى فتلفتت يسارًا، وكأنها سعدت باسمها فغمرتها النشوة كما غمرها الصباح بنداه الرطب، فابتهجت بكل ما قيل لها وسمعته، وكأنها تعدّها أن تكون كذلك رقيقة غنية وارفة الظل، جميلة المنظر، ملتفة الأغصان كما تمنت، سحبت الأم يدها من شعرها، وقامت وما زالت الشجرة متعلقة بنظرها نحوها ترافقها حتى غابت داخل البيت.

ـ لماذا تركتما هذه الشجيرات عطشى دون ماء؟

قالها مشعل بصوت أجش، وقد انعقد جبينه وضاقت عيناه، واكفهر وجهه وارتعشت شفتاه من شدة غضبه كأنما أغضبه شيء آخر، فجاء يضع جم غضبه هنا. في البداية لم يلحظه ناصر ورفيقه، ولم ينتبها لوجوده وكأنه هبط من السماء، فأجابه ناصر الذي اقترب منه:

ـ سقيناها في الصباح الباكر، لكن الأرض دائمًا لا تحتفظ بأيِّ ماء، فتظهر وكأنها لم تسقَ.

علا صوت مشعل أكثر، قائلًا:

ـ ومن الذي سقاها؟

سقاها كيشنا لقد قلت له ففعل.

ظل مشعل على غضبه وارتفاع صوته وهو يشير بيده ليأتي كريشنا، فأتاه على مهمل خائفًا متوجسًا مما ضاعف غضبه، فأمسكه من كتفه حتى تخطاه، ثم دفعه من ظهره ناحية إحدى الشجيرات، وما زال صوته يلف المكان:

ـ لماذا لم تسقها كما يجب؟

قالها ونزل على إحدى ركبتيه، وحفر الأرض بأظافره، وتناول منها كبشة من ترابها وقذفها في وجهه، هاتفًا:

ـ متى سقيت هذه؟

لم يكتف بذلك والهندي يتمتم بصوت خافت إنه سقاها، ولكنه لم يدعه يكمل، فقد أمسك عقال رأسه الأسود، وفك دائرته فطال في يده، ثم انهال على ذلك المسكين ضربًا، وهو يقول:

ـ أنت هنا من أجلها، راتبك من أجلها؟

ضربة أولى ثم الثانية وتعلقت الثالثة أعلى رأسه فلم يهو بها، فقد منع ناصر يده أن تنزل على العامل الذي لم يفلت من قبضة يده الأخرى، فصاح مشعل فيه:

ـ لا تمسك بيدي.

رد ناصر غاضبًا:

ـ وأنت لا تضربه، أنا سأسقي الشجيرات الآن.

لكن غضبه كان هادرًا، فصاح:

ـ ابتعد عني واترك يدي.

سأبتعد لكنه سيرافقني، دعني وعاملي أفعل ما أريد.

اشتد غضبه في حين حافظ ناصر على هدوئه، وحال دون أن يكمل مشعل معركته غير المتكافئة، وفك ذلك المسكين من تحت ضرباته المبرحة، مما زاد حنقه فاستقل سيارته وغادر غاضبًا، فاصطحب ناصر رفيقه إلى الغرفة محتضنًا إياه تحت ذراعه، ومسح على رأسه وأتاه بالماء ليغتسل، وقال له:

ـ أنت ارتاح، وأنا سأكمل ما تبقى من أعمال.

كان يتحدث إليه دائمًا دون أن يغير في كلامه أو لهجته، كأنه يفهم كل ما يتلفظ به ويقوله، فكَّر كثيرًا فيما حدث، كيف سمح مشعل لنفسه أن يمد يده على الرجل؟ ومن خَوّله أن يفعل ذلك؟ أهو راتبه الضئيل الذي لم يتقاضاه بعد، أم ضعفه أمامه حيث لا أخ ولا أب ولا سند لا أهل ولا بلد؟ فكم تساوي كل ضربة هَوَت على جسده النحيل؟ ثم ما هي الجريمة التي ارتكبها، والفعلة الشنيعة لتكون هذه عاقبتها أوعقابها؟ عاد متأخرًا فوجد الرفيق وقد انكبّ على

وجهه، وغاص في نوم عميق، تركه ثم أنهى كل ما يريد ليخلد هو الآخر إلى النوم.

أثناء العمل في اليوم التالي توقف ناصر عن العمل فجأة، وترك فأسه واتجه ناحية كريشنا الذي كان منهمكًا في عمله، فاستوقفه وقبض على كتفيه بيده، وأطال النظر في عينيه المتعبتين، وتفحَّص وجهه ولحيته التي تخللها الشيب وخطوط جبهته، وشفتيه التي مالت إلى الزرقة، هزَّه من كتفه هزتين، ثم قال:

لا عليك لن يحدث هذا ثانية، أنا المخطئ؛ لأنني تركته من البداية لتهوي يده عليك.

قالها والتفت وعيناه تحدّق في السماء، ثم خطى خطوات ثقيلة، قائلًا:

ـ كان يجب ألا أتركه يفعل ذلك، حتى وإن باغتني بفعلته.

ثم رمق كريشنا بنظرة شفقة وعاد ليعمل، ولكن تلك الحادثة لم تغب عن ذهنه أبدًا، فقد تراءت أمام عينيه هذه المشاهد مرارًا وتكرارًا، رأى ذلك الوجه الغاضب المتصلب عنفًا، وقد فارقته البشاشة وخاصمته الابتسامة إن كانت قد زارته يومًا، وتراءت له تلك العيون المتراقصة حُنقًا التي تكاد تترك محجريها، وقد غلب بياضها سوادها، تنطلق نظراتها رصاصات، منصتها ذلك الوجه المرتعش، والشفتان التي لا تتفارقان إلا للعن والسب، والتعليمات المعدة سلفًا بلهجة عنجهية وغطرسة.

رأى ذلك الشارب المتأرجح الأشبه بطائر يتأهب لترك غصن قد سأم المكوث عليه طويلاً دائم الفكر، فزاد حزنه على رفيقه الذي يقاسمه تلك الظروف الصعبة التي تكاد تكون مستحيلة للعيش، لم يستطع النوم تلك الليلة، ظل ينظر في سقف الغرفة تارة، وإلى رفيقه الذي يغط في نومه تارة أخرى، ظل متوترًا قلقًا وقد جافاه مضجعه، وقد أقسم أن يتحمل الصعاب مهما بلغت من أجل هدف أراده ويكابد من أجله، سيتخذ من الصبر طريقًا، ومن الأمل شراعًا ومن الحلم راية كي يعبر الشاطئ الآخر الذي طالما تمناه، شاطئ الحياة الكريمة، شاطئ السعادة والاستقرار والسلام الذي طالما حلم به.

مرت الساعات، وأخذت شمس اليوم التالي في الزوال، وأتى مشعل مترجلًا بعد أن أوقف سيارته بعيدًا، ألقى السلام ناقصًا، وقد حمل معه بعض الأطعمة علبًا من السردين والفاصوليا والخبز وبعض الخضراوات، مشى ناصر ناحية السيارة بخطى متثاقلة بين حزنه لما حدث، وبين حاجته لما يحمله، فأعطى مشعل لهم بعض التعليمات، وقفز خلف مقود سيارته جاذبًا بابها بعنف، ثم فرَّ كعادته تاركًا دوَّامة الأتربة وراءه، وناصر شاخص النظر تجاه من فرَّ وبين يديه متاعه كتمثال من الشمع، قاوم حرارة الصحراء وبقى على هيئته، حمل عنه كريشنا ما بيديه، وناصر يهتف به:

ـ لابد أن نجد حلًّا للأطعمة بعيدًا عن نمل الصحراء المجنّح.

قالها، ثم أردف بصوت فاتر:

ـ علقها في الأعلى بعيدًا عن النمل.

يجف الخبز وييبس في يومه، كانا يأكلاه محمصًا أو يبللانه قبل الأكل بالماء، لم يسلم طعامها من زيارات النمل إن ترك منها شيئًا، يتفنن في ثقب الطماطم والخضروات، فلا يوجد ثلاجة لحفظ الطعام، حتى وإن علّقوه في أعلى مكان لا تخفى عليه.

الفصل السادس

في صباح أحد الأيام، وقفت سيارة ماركة شيفروليه، حمراء اللون عالية الارتفاع ضخمة الإطارات بغرفة قيادة، ولها صندوق كبير يُحمل عليه معدات، بها ثلاثة أشخاص، نزل أحدهم واتجه نحو المزرعة مناديًا ولكن لم يسمعه أحد، فنادى مرة أخرى بصوت أعلى، أتاه ناصر من آخر المزرعة، فألقى عليه الرجل التحية، قائلًا:

ـ أنا مهندس تابع لشركة الآبار، أين البئر المعطلة عندكم؟ لقد جئنا لصيانتها.

لم يخبرني صاحب المزرعة بذلك، ثم إن البئر تعمل جيدًا، وقد قمت بتشغيلها في الصباح، ولا شيء يعوق عملها.

ـ أليست تلك مزرعة السيد زياد؟

ـ لا ليست هي.

إذًا هي مزرعة أخرى في تلك الأنحاء، سنبحث عنها.

والتفت المهندس؛ ليغادر فاستوقفه ناصر، قائلًا:

ـ هل يوجد هنا مزارع حولنا؟

أجابه المهندس:

ـ نعم، يوجد الكثير من المزارع حولكم.

تهلَّل وجه ناصر فذلك يعني وجود آخرين حوله يعملون بالمزارع الأخرى، وربما يكونوا مصريين مما جعله يردف، قائلًا:

ـ تعرفها كلها، أليس كذلك؟

ـ أعرفها كلها بالطبع، بالأسماء والعدد، أما الأماكن ما زلت استكشفها؛ لأني أول مرة بالمنطقة هنا.

قالها ومشى خطوتين، كأنما تأخر فتبعه ناصر، هاتفًا:

ـ اسمح لي أن أقدم لك كوبًا من الشاي أنت ومن معك من الموجودين بالسيارة.

وقبل أن يرفض الرجل بادره ناصر، قائلًا:

ـ لن أتأخر.

استجاب الرجل لطلب ناصر مما جعله يفرح أيّما فرح، فأخيرًا لديه ضيوف وإن كان لا يعرفهم، وما إن احتسوا الشاي حتى غادروا سريعًا، على وعد بلقائه عندما تتاح لهم فرصة أخرى.

كان ناصر دائم القلق في الليل، رغم تعب النهار وعمله الشاق إلا أن هذه الليلة شعر وكأن تعبه قد تضاعف، لم يستقر جسده على الفراش، كان يتقلب ما بين شقه الأيمن تارة، فلا يلبث إلا أن ينقلب إلى الأيسر، لم ينطبق جفن على الآخر،

ظلت عيناه تحدِّقان بوسعهما في الظلام، منصتة أذنيه لأنفاس كريشنا المتلاحقة برتابة وشخير نومه المتعب، حتى لاح الصباح وانبلج الفجر بأنواره الخجولة، ففز من مرقده إلى كريشنا يهزه من كتفه، وصاح فيه:

ـ قم، انهض، ألا يكفيك الليل كله نوم.

ظل جسد كريشنا ثابتًا لم يتحرك، غير أنه فتح عينيه المثقلة، ونظر في وجه ناصر بغبش وضباب النوم من وراء جفن واحد، فأردف ناصر:

ـ قم أيها الكسلان، فاليوم عيد.

فتح عينيه كاملة لم يدرِ ماذا يحدث، وناصر يهتف:

ـ قم، ألا تعرف العيد؟ ألم أحدثك عنه قبل أيام؟ قم كي تغتسل وترتدي ملابس جديدة غير ملابس العمل الرَّثْة، وأنا أيضًا، لقد قمت بتحضير الملابس في المساء وصنعت طعامًا وأنت كسول.

كل ذلك وكريشنا ما زال نائمًا، فكشف عنه الغطاء الخفيف، وهزه هزات متتالية، وفتح شباك الغرفة والباب أيضا، لفَّ الغرفة هواء الصبح وغمرها بموجاته الرطبة ،وأنواره الباهتة المنسلخة من ظلام الليل.

قام واعتدل في مكانه، ونظر ناصر إلى صدره العاري، فقد كان يرتدي بنطالًا رماديًا فقط، فرأى على شق صدره الأيمن شيئًا مكتوبًا بلغة لا يعرفها، والشق الأيسر مرسوم عليه وجه امرأة مرسومة بالوشم الأخضر ظاهرًا جليًّا على بشرته السمراء الداكنة، فاقترب منه وجلس بجواره، قائلًا:

ـ أهذه حبيبتك؟!

قالها ناصر بصوت هادئ، فاستفاق كريشنا وسحب جسده وجلس جلسة كاملة معتدلة، فكرر ناصر السؤال:

ـ هذه حبيبتك؟!

أشار ناصر إلى صدره، ثم ضم إصبعي الوسطى والسبابة وأشار ثانية بعد أن سأله بلهجته العفوية مبتسمًا، فأومأ كريشنا بالإيجاب بعد أن فهم ما يقصده ناصر، فابتسم ناصر ابتسامة أعرض من سابقتها، وسرت عدواها إلى شفتي صديقه فابتسم، فأردف ناصر:

ـ لم تكن سهلًا، وأنا الذي ظننتك مسكينًا.

وبسرعة سحبه من يده، هاتفًا في مرح:

ـ قم يا روميو.

ضحك الآخر، وقد فهم ما يقال من إيماءات ناصر، فتَّش ناصر في ملابسه، وأخرج ملابس لم يكن يرتديها، وجرَّه من يده كمن يمسك طفلًا خيفة أن يتوه، ذهبا إلى ذلك الخزَّان المرتفع الذي تتدلَّى منه ماسورة مرفوعة عن الأرض قرابة ثلاثة أمتار لها صنبور مرتفع قليلًا، صعد ناصر وفتحه فتدفق الماء بقوة، وكلما دنا من الأرض افترش تدفقه، باغت كريشنا ثم دفعه بقوة تحت الماء ضاحكًا بصوت عالٍ، مر كريشنا من تحت الماء، ثم خرج من الجهة المقابلة، ولكن ناصر لم يتركه فقد التفَّ وراءه، ثم دفعه ثانية وظل يكررها والأخير يحاول الهرب، ثم

انفجر ضاحكًا ضحكات عالية أسعدت ناصر، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يعلو صوته وتظهر نواجذه، وبدوره حاول كريشنا دفع ناصر تحت الماء، لكن ضعف بنيته وقوة ناصر لم تمكنه من ذلك، لكن ناصر استجاب لهدفه وطاوعه فيما يريد فعله، فدخل تحت الماء منتشيًا به، وقد انفرجت أساريره سعادة بتدفقه المنعش.

ارتدى كلٌّ منهما ملابسه الجديدة أو التي لا تُلبس كثيرًا، ليست ملابس العمل المهلهلة الرثة، وقاما لتناول إفطارهما، مشيا جنبًا إلى جنب حول المزرعة يحدثه كما لو كان يفهمه تمامًا، راقب الزراعات الورقية باسطة ذراعيها ممددة على خد الأرض المنبسط، وأشجار الكافور التي تلف إطارها بلون براعمها الأصفر المائل للخضرة، تعتليها بعض العصافير، وهو لا يعلم إن كان صديقه يفهم أن هذا يوم عيد أو لا يعلم، لكنه هتف في نفسه، قائلًا:

ـ حتى وإن لم يعرف، يكفي أنه يشاركني هذا اليوم من بدايته.

صمت فجأة ووجم فمه الذي لم يغلق منذ أن نهض من فراشه، وأسدل الحزن ستاره على وجهه، وفتحت له تلك البراعم النضرة التي يراها نافذة لخياله، في لحظة خاطفة أخذته إلى بيته في ليلة العيد وصباحه، تذكر ليالي العيد التي كان يأبى وهو صغير إلا أن يحتضن ملابسه فيها، وتنام في حضنه وبين ذراعيه مع حذائه الجديد، فقد كان لا يتركها في خزانة ملابسه، فتقر عيناه، وينام فرحًا متهللًا.

قبل أن يستيقظ على صوت لا يعادله صوت ولا يحاكيه نغم، صوت أمه، وهي تقول:

ـ استيقظ، فاليوم عيد.

وهو لا يدري كيف كان يرد عليها واقفًا وسط غرفته، يالها من فرحة، قد نسجت خيوطها الحريرية على أطراف ألسنتهم، فجعلت من كلماتهم رقة تفوق ملمس الورد، وأضفت نورًا يتلألأ على محياهم كحبات المطر التي تنسدل ستائرها على الكون فينضر وجه الأرض.

نعم إنه العيد الذي يحمل جوًا خاصًا للجميع في القرية، فقيرها قبل غنيها يمشون في جماعات، يتقدمهم شيوخهم قبل أطفالهم، الكل بالشوارع كأسراب الحمام يتعانقون والابتسامات تبلغ السماء، يتسابقون على الدخول والخروج من بيت لآخر.

قطع خياله المسافر، ونظرته التي ما زالت عالقة في براعم الشجر الصغير، هدير السيارة التي رآها من قبل، وصرير عجلاتها الضخمة على كثيب الرمل والحصى، فمشى نحوها ناصر قبل أن ينزل منها أحد يتبعه كريشنا، إنه المهندس فِرَاس الذي التقاه قبل أيام هنا، فرحَّب به ناصر وهو ما زال يمشي نحوه ودعاه والمهندس، يردف:

ـ كما تعلم، أنا قريب منك هنا، فهناك مكان لإقامتنا تابع للشركة، وقد وعدتك بزيارة ولم أجد أفضل من يوم العيد كي أزورك فيه.

انشرح صدر ناصر، وابتسم ورحَّب مرات ومرات وعرَّفه على كريشنا، كان ناصر قد سبق وأن تعرَّف على المهندس وعرف أنه من الأردن، وضع المهندس لفافتين أمام ناصر، قائلًا:

ـ كل عام وأنتم بخير، هذه أشياء بسيطة بمناسبة العيد، لحم وحلوى وفاكهة.

وقف ناصر مستغربًا وهو يهتف، قائلًا:

ـ لم يكن عليك أن تتعب نفسك، فيكفي علينا أنك تذكرتنا، صدقني هذا هو العيد.

كلنا بعيدون عن بلادنا يا ناصر، دعنا نُفرح قسمات وجهك وملامحك التي تحمل طيبة النيل وبشاشة المصريين وروحهم الخفيفة، ألا تريد أن نكون أصدقاء، هذا عربون محبة بيننا.

قام المهندس بإعداد الطعام معهم، وأكلوا مما أنضجوه وضحكوا وفرحوا، ولكن ناصر سأله فجأة:

ـ ولكن ما الذي ذكرك بي اليوم؟ فأنا لم أتوقع حضور أحد لنا في هذا اليوم.

أتعرف، معي عمال أسيويون سلمت عليهم، ولكني آثرت أن أقضي معك أنت بعض الوقت، لا أدري يا ناصر، ولكني أحببتك بطيبتك وعفويتك، وشعرت أنك قريب مني، وكأنك من أهلي.

كان فراس شابًّا في نهاية عقده الثاني، خفيف الظل مثقفًا، ابتسامته خجولة، صوته خافت بعض الشيء، اقترح على ناصر ورفيقه أن يصحبهم في جولة

صحراوية، فأتموا أعمالهم وقفزوا إلى السيارة فرحين، كأنها طوق النجاة من عزلتهم، كانت السيارة وهي تجوب الصحراء كجناح طائر يجوب بهم تلك الصحاري، لقد أدخل فراس السرور على قلوبهم وفرحوا أيّما فرح؛ لأن الله لم ينساهم في هذا اليوم، وقد ساق إليهم هذا الرجل الذي لم يلقاهم إلا مرة واحدة.

عرّفهم فراس على بعض المزارع والأمكنة لبيع أعلاف الأغنام، واتضحت له بعض الشيء معالم الطرق، مرَّ الوقت سريعًا منذ الصباح وحتى أذان العصر، ولكنهم فوجئوا بفراس، وقد انطلق بسيارته فجأة بعد أن توقفوا قليلًا عند إحدى الآبار، فسأله ناصر:

ـ إلى أين يا باشمهندس؟ أراك انطلقت فجأة.

حدق فيه فراس بنظرة هادئة، وقد رسم على وجهه ابتسامة مشرقة، ثم قال:

ـ منذ أن خرجنا في الصباح لم تسأل، فلماذا السؤال الآن؟

لأني أراك انطلقت فجأة، وكأنك تذكرت شيئًا ما.

ـ كما قلت، لقد تذكرت شيئًا ما.

قالها فراس ثم اتسعت ضحكته، وعلا رتيب صوته الهادئ، وأردف قائلًا بلهجة مصرية خالصة حاول أن يتقنها:

ـ سأذهب بك إلى مصر يا سيدي، فما رأيك؟

لم يتأخر ناصر في رده:

ـ يا ليت، ولك.

قالها وكرَّر سؤاله، قائلًا:

ـ ولكني أسأل جديًّا إلى أين؟ أنت مسرع وتقصد مكانًا بعينه، ثم إننا ابتعدنا كثيرًا.

لم يرد فراس الذي حاول كتم ضحكته، مما جعل ناصر يضع يده على مقود السيارة، هاتفًا في فراس بالتوقف وهو يقول وقد علت نبرة صوته، وظهر على وجهه الانفعال:

ـ أظن من حقي أن أعرف إلى أين نذهب.

ثم استدار ورمق كريشنا الذي يتابع كل شيء في صمت مطبق بنظرة خاطفة، فقال فِراس الذي حافظ على هدوئه، وقد شعر بغضب ناصر وبنفس اللهجة المصرية التي أحبها:

ـ لِمَ هذه العجلة؟ ما هي إلا دقائق وتعرف.

ثم رمق هو الآخر كريشنا في مرآة السيارة؛ ليجده على هدوئه وكأن كل ما يحدث لا يعنيه، فقال مازحًا بنفس اللهجة:

ـ كن كهذا الرجل الطيب.

قالها ضاحكًا مما زاد من حنق ناصر، عشرون دقيقة كانت فاصلة بينهم وبين وصولهم إلى مزرعة قديمة العهد وكبيرة، بها عدد من المصريين تعرّف فراس عليهم من خلال عمله، وأمام بوابتها الحديدية المنخفضة الارتفاع التي تُمكّن

لأي شخص القفز من فوقها، أو من إحدى جوانبها بامتداد حوافّ المزرعة، لكن البوابة لها رمزية وحرم لا يتعداه أحد، ضغط فراس على آلة التنبيه؛ ليترجّل أحدهم نحو البوابة، هاتفًا بأعلى صوته:

ـ ها أنا قادم.

تقدمت السيارة والرجل يزفُّها بهالة من الترحيب الحار، فأطفأ فراس محركها وهو يرمق صديقه، ضاحكًا:

ـ ها أنت الآن في مصر، هيا انزل.

لم تكن سحابة الغضب التي اعترت ناصر قد انقشعت كاملة من على وجهه إلا بعدما اقترب الرجل مهرولًا وراء السيارة، وقد سلَّم على المهندس فراس الذي بدوره أشار نحو ناصر الذي ما زال قابعًا في مكانه، قائلًا:

ـ أُعرفك يا عم أحمد، ناصر من مصر، فكرت في أن أُعرفكم على بعض.

استدار العم أحمد ناحية الباب الآخر للسيارة، وعبارات الترحيب تتلاحق على شفتيه، وبدوره فتح ناصر باب السيارة، فاستقبله الرجل استقبالًا حارًّا كأنه يعرفه قديمًا وعلى موعد معه، اتجهوا جميعًا إلى الغرفة المتواضعة التي تجمّع فيها عدد من المصريين في مثل هذه المناسبات، والذين استقبلوه نفس استقبال العم أحمد، وإن زاد العم في الترحيب نظرًا لأنهم كانوا ضيوفًا عليه.

تبادلوا أطراف الحديث، وتلاحقت الضحكات التي غسلت الكثير من آلام غربتهم، وقد قدَّم العم أحمد الفاكهة والحلوى، كانت سويعات قليلة أحس

خلالها ناصر أنه يوم غير عادى غَيّر من معنوياته ونفسيته، خاصة بعدما علم أن العم أحمد بالمزرعة منذ ما يقرب من خمسة عشر عامًا، وأنه يعرف الشيخ صاحب المزرعة التي يعمل بها ناصر لِقدمه بالمكان، الذي عرض عليه المساعدة في أي شيء يحتاج إليه، مما جعله يشعر أنه ليس وحيدًا، فعاد مطمئنًا وقد شكر فراس على نبل أخلاقه، كما اعتذر له على انفعاله.

فقد كانت هذه الزيارة غير المتوقعة في هذا اليوم بمثابة حبل رُمي لغريق في عرض الصحراء تعلَّق به وإن لم يخرجه منها، فقد يعطيه بعض الأمل أن يبحر إلى الشاطئ الذي ينشده في أي وقت يريده. وفي المساء جاء صاحب المزرعة هادئًا متهدلَ المشية حاملًا بيده طعامًا وفاكهة أعطاها لهما، ثم سلّم عليهما وانصرف.

عادت الحياة المفقودة في المكان والروح الغائبة، تكاثرت فيها الأغنام وأصبحت جزءًا لا يتجزأ منها، أخذت حيّزًا فيها، يجلس بينها ناصر يحدثها يحكي لها تسمعه وترمقه بعيونها وهي تمضغ طعامها، فكان يحكي أكثر عندما تحدق، فهي مهتمة بسماعه، وفجأة تتحول لتلتقط بعض أعواد البرسيم وتعرض عنه ولا تبالي بما يقول، فيكمل لغيرها فتنصرف عنه دون إذن، وهو ما زال يحادثها.

أدار كريشنا محرك السيارة النيسان ذات الموديل القديم، والجسم المتهالك المصدوم من كل اتجاهاته تقريبًا، بلونها الأبيض الباهت، وقد علاها الصدأ، فقط مصباحها الأمامي الذي كان يعمل دون الآخر، أما مصابيحها الخلفية فقد

كان أحدهما مفقود، والثاني معلق بسلك إليها. أشار أنه ذاهب لجلب أعلاف الأغنام، فأومأ له ناصر وحرّك يديه ليفهمه، وليتأكد أنه يعرف المكان، كان ذلك يتطلب من ناصر وقتًا وجهدًا يحرك فيها يديه، وتعبيرات وجهه حتى يفهمه، كان ذلك لحرصه الشديد على صديقه فرافقه إلى هناك، جلس الهندي خلف المقود، وانطلق بعد أن استقر ناصر بجواره، أسرع كريشنا وهو يمشي فالتفت إليه ناصر واضعًا يده على المقود بأن يخفف سرعته، فكادت كل قطعة من السيارة أن تغادرها حتى إطاراتها بسبب طبيعة الأرض، فكانت تترنّح يمينًا ويسارًا وهو قابض على المقود، ومع ذلك كان يسرع فكان ضجيج محركها يَصُمّ الآذان، وتخبط مصباحها المفكك.

عادوا ببطء محملين بالبرسيم والشعير، أخذ الطريق ضعف الوقت الذي تستغرقه تلك المسافة بسبب حالة السيارة، وما إن وصلوا بعد الزوال بقليل حتى وجدوا صاحب المزرعة عند مدخلها مكفهرّ الوجه يتطاير الشرر من عينيه، والغضب قد كسا وجهه المتأجج غضبًا، وهو يصيح بصوته الأجش الخشن:

ـ أين كنتما حتى ذلك الوقت؟

وقبل أن يرد أحدهما بادر كريشنا، قائلًا:

ـ لماذا لم تذهب وحدك كما علمتك؟

لم ينبس كريشنا ببنت شفة، فأناب عنه ناصر في الرد، قائلًا:

ـ أنا الذي ذهبت معه، ما كان يجب أن يذهب وحده، وهو لم يسبق له أن ذهب هناك.

ـ ومن سمح لك بذلك؟

ـ أليس هذا من عملنا نحن الاثنين؟ لقد انتهينا من عملنا هنا بالفعل.

لم يدعه مشعل يكمل، ولم يطل صبره فقد أخذ خطوات سريعة نحو الهندي، وأمسك به وهو يقول له:

ـ ألم أقل لك تذهب وحدك؟

وأراد أن يهوي عليه ثانية، ويحمله مسؤولية ذهاب ناصر معه، فحال ناصر دون حدوث ذلك، بعد أن أسرع وأمسك بقبضة يده وجذب الهندي خلف ظهره، هاتفًا:

ـ أنا من ذهبت معه، هو كان لا يريد ذلك.

زاد حُنق الرجل، وازداد غضبه وهبَّ ثانية نحو الهندي، فحجزه ثم دفعه عن الهندي فوقع أرضًا؛ ليختلط بياض ثوبه بالتراب ويقع عقال رأسه، فقام مشعل ليفر بعيدًا ونهض يجري باتجاه الاستراحة ينتعل نعلًا واحدًا بعد أن فلت من قدمه الآخر، وما إن وصل إليها حافي القدم متسخ الثياب حتى فزع له رفقاؤه الاثنان بعد ما علموا بما حدث، فطوقوا ناصر بعد أن أتوا في لمح البصر، وأحدهم يهتف:

ـ ماذا فعلت يا كلب بسيدك؟

أنا ليس لي سيد، أنا أعطيه عمل مقابل أجر، وليس من حق أحد أن يسبني، لقد منعته أن يضرب ذلك المسكين ثانية فوقع على الأرض.

لم يدعاه يكمل كلامه، وقد أقسما أن يرياه يومًا لم يره في حياته، فالتف أحدهم خلفه فرجع ناصر إلى الوراء حفاظًا على موقعه، فكانوا جميعًا في مواجهته وأمامه، دفعه أحدهم فلم يتحرك، أراد أن يضربه فصدَّ ضربته دون توجيه ضربة له، فدار آخر خلفه فاستدار نصف استدارة نحوه، فسدَّد الآخر ضربة نحوه، وقد طوقوه الثلاثة، فدفع أحدهم ثم دفع الآخر، واحتضنه الثالث وقبل أن يفلت منه دفعه الأول؛ فوقع ليجثم على صدره اثنان ويقيدوه بحبل، كل ذلك وكريشنا يتابع من بعيد، تتلاحق أنفاسه بعد أن عمَّم الحزن رأسه، ولفَّ جسده ثوب الخوف وارتعدت فرائسه وانساب التوتر في أطرافه.

دفعهم ناصر بقدميه بعد أن قيدوه، وهم يتصايحون:

ـ ستعرف من تكون الآن يا كلب.

وقف بعد أن دفعهم فتابعوا قذفه، وطرحوه ثانية؛ ليجروه على ظهره، كان قابضًا على شفتيه لم يصرخ أو ينطق، تتلاحق أنفاسه كأنها ريح في يوم عاصف، وقد اختلطت بأنفاسهم المتعالية، جرّوه إلى حظيرة الأغنام على التراب والروث حتى وسطها وهناك أوثقوه، قيَّده أحدهم في أحد الأوتاد المتينة من قدميه، ويديه في وتد آخر حتى لا يتسنى له فك رباطه أو قطع قيده، رمقه مشعل بنظرة الحقد، وحدثه بلهجة المنتصر:

ـ ستبيت هنا مع من هُم من مقامك، حتى تعرف كيف ترفع طرف عينك وليست يدك، ولك أن تحمد الله أني لم أقطعها.

تُرى لماذا يحمل هذا الشخص كل ذلك الحقد تجاه ناصر منذ أول يوم أتى فيه رغم استقباله بطريقة مختلفة؟ وإذا كان ناصر فقط فلماذا يضرب العامل الهندي بهذه الطريقة الهمجية، وقد أنعم الله عليه بالمال والصحة والشباب؟ لماذا ينزل من سيارته متعاليًا لا يرى في عينه بشرًا سوى نفسه، يغلق باب سيارته أحيانًا بخلفية قدمه وهو يترجّل منها، ألم يكن من أعطاه كل هذا هو نفسه خالق هؤلاء؟!!

أيُّ مهانة وأيُّ ذل يسببه الإنسان لأخيه الإنسان؟ أي دين يتبع وأيُّ عادات تحكم وأيُّ مبادئ تسود وأيُّ أعراف تقر؟ أقسم ناصر ليلتها أنها ستكون الأخيرة له في هذا المكان ولو على موته، هطلت عليه غمامة حزن أمطرته فقذفت به من سنوات الربيع التي يعيشها إلى شيخوخة النهايات والعجز، جرفت خلالها لحم وجهه؛ ليتدلى من وجنتيه حتى كاد يلامس شفتيه المتدليتين يسحبهما الحزن إلى بئر سحيق، فيا له من حزن بلون الليل الغطيس.

غمامة لم تنقشع إلا وقد جرفت قسمات وجهه المشرق، وابتسامته الدائمة وبشرته النضرة الصافية، فعرجت بذلك في وجهه منحنيات دفينة انتكست على إثرها أهدابه المشرئبة، وارتخت خطوط حاجبيه المستقيمة.

ضاقت الصحراء الواسعة في عينيه، ونضب هواؤها الذي يستنشق وتحول إلى دخان يخنقه ويجثم على صدره، نظر في السماء المقفلة إلا من دعاء يصله بربه، حوَّل نظره إلى الدروب المظلمة، فلقد رماه قدره بسهم أصابه، تملَّص كي يتخلص لكن عبثًا دون جدوى. في الصباح الباكر غادر مشعل ورفاقه بعد أن وقفوا عنده جميعًا ملتفين حوله، قال أحدهم:

ـ أتمنى أن تكون قضيت ليلة مريحة مع أصدقائك.

وقال آخر:

ـ من أجل أن تتعلم الأدب.

ثم رمقه مشعل بنظرة ازدراء حانقة وغادروا، فهرع إليه رفيقه الذي لم ينم ولم يهدأ في غرفته خوفًا ورعبًا وقلقًا وتحسبًا، حاول فك الحبال فلم يستطع، فقطعها كما قال له ناصر، ثم ارتمى على صدره، فضمَّه ناصر إلى صدره، وهو ينشجّ من بكائه الشديد، فنظر ناصر في وجهه ومسح دموعه بإبهامه، وأخذه تحت ذراعه ومشيا، لم يغتسل ناصر وركب السيارة وأشار لرفيقه أن يشغلها ففعل، ثم انطلقا إلى سوق بيع الأعلاف.

سأل عن الطريق إلى بيت الشيخ، فأجابه أحدهم ووصف له الطريق، وقد أصبح لديه خلفية عن الطرق من خلال جولاته مع فراس، وبما أن الشيخ له اسمه فالجميع يعرفونه، رحَّب به الشيخ الذي يستيقظ مبكرًا بعد صلاته يحتسي قهوته في مجلسه المشرَّع الأبواب دائمًا للجميع، وأشار لناصر، قائلًا:

ـ حياك الله.

قالها وأشار له بالجلوس على يمينه، وقد أمر لهم الشيخ بالفطور، فتمتم ناصر، قائلًا:

ـ بعد أن تسمعني يا شيخ لو سمحت لي.

ـ كلي آذان صاغية لك يا ولدي.

قصَّ عليه ما حدث، واسترسل ناصر، فاتسعت عين الشيخ غضبًا، وترك فنجانه وقد آلمه ما سمعه، والمظهر الذي عليه الرجل بثيابه الرثة، اهتم الشيخ اهتمامًا بالغًا، وما إن انتهى ناصر من حديثه حتى هبَّ الشيخ مناديًا على ولده فلم يجده، فأرسل له من يستدعيه للمزرعة فور علمه.

ارتدى الشيخ عباءته، وقد تثاقلت قدماه بسبب مرضه، متحاملًا على عصاه، وصاح في سائقه فأتاه مسرعًا لقربه منه، ركب السيارة بصعوبة، وهتف في ناصر وصحبه أن يستقلا معه السيارة، وما إن وصلوا والشيخ بسيارته لم ينزل حتى علم مشعل بذهاب أبيه في ظروف مرضه تلك؛ فانقبض قلبه وهو بطريق ذهابه، أما الشيخ فسأل ناصر ثانية أن يقصَّ عليه ما حدث.

بدأ ناصر الذي يقف بجوار باب السيارة المجاور للشيخ في سرد ما حدث متحدثًا ومعبرًا بيده، وقد أخذته قدماه إلى حيث جرُّوه وقيَّدوه حتى وصل إلى الحبال المتقطعة وسط الأغنام، يراه الشيخ من شباك سيارته التي تتحرك رويدًا

رويدًا داخل مزرعته خلف خطوات ناصر، مما زاد غضبه وحنقه من ولده المتهور، ثم أردف قائلًا:

ـ يا سواد الوجه! نحن نفعل بالناس هذا؟!! نحن من نعين الضعيف وننصف المظلوم ونصد من ظلم نفعل هذا؟!!

كان صوته المبحوح العالي في بعض كلماته يلف المكان، ويداه ترتفع وتنخفض والكل يتابعه خوفًا على صحته، وقد سمعه ولده الآتي من بعيد تاركًا سيارته على مسافة، وهو يمشي متهدلًا في مشيته والكل يترقب.

وما إن وصل ووقعت عين أبيه عليه أمر بما لا يتوقعه أحد، فقد أمر أن يجرَّه ناصر ورفيقه من نفس المكان الذي جرَّه منه إلى نفس المكان الذي ربطه فيه، فوجئ ناصر بما يقوله الشيخ، فلبث ناصر مكانه دون أن يتحرك، وقد ألجمت شفاهه، وهو يهتف في نفسه:

ـ ليتني مشيت دون علمه.

فصاح بهم الشيخ بصوت أعلى أن ينفّذوا ما أراد وإلا سيفعل هو، فطلب منه ناصر أن ينتهي الأمر هنا، وأن يدعه يرحل فحسب، لكن إصرار الشيخ وتصميمه قطع عليهم الطريق، وأنهى الكلام، وما إن وصلوا إلى المكان حتى ترجّل الشيخ متحاملًا على نفسه، وربطه بيده وهو يشد وثاقه ويثقل سمعه بكلام جارح:

ـ أما وإن حدث ذلك لهذا الرجل الذي ترك داره وأهله وربعه من أجل كسب لقمة عيشه من حلال ثم يفعل به ذلك، فلابد وأن يأخذ حقه بيده هو، وما دام هناك نَفَس يتردد في صدري فلن أسمح بظلم أحد مني أو منكم، أما الرجل الذي بات ليلته هنا في الليل البارد، فستظل أنت تحت الشمس حتى تتعلم كيف تكون الرجولة، وكيف يكون الرجل رجلًا، وكيف يتعامل الشيوخ مع ولد متهور مثلك، لا يعير البشر وزنًا.

قالها وهو يهوي بيده عليه، فمنعوه وأخذوه إلى الاستراحة منهكًا متعبًا. ظل الشيخ بمزرعته رغم مرضه وتحامله على نفسه بعد أن أعفى ابنه من متابعة عمله، والإشراف على المزارع وباقي الأعمال الأخرى، فهي ليست المرة الأولى التي يشتكي منها العمّال من سوء فعله، وأجلسه في البيت شهرًا كاملًا لا يغادره، وسحب منه سيارته، وأسند مهام العمل لأحد أبناء عمومته.

وبعد أن طلب الرجل إلى ناصر بالبقاء على رأس عمله، لا سيما بعد أن رأى مجهوده الرائع، وعمله الدؤوب والحياة التي دبت في المزرعة، استدعاه ذات يوم إلى المنزل، هو وعمال كثيرون ودعاه الشيخ، قائلًا:

ـ أعلم يا ولدي أن ما قد حدث قد آذاك.

وطيَّب خاطره وأكرمه، وتواصل مع الرجل الذي أتى به، وأرسل معه نقوده التي له وزاد عليها، فأرسل ما لديه من نقود، وما قد اشتراه من حاجيات وأشياء يعرف أن أمه في حاجة إليها وإخوته أيضًا، بعد أن أكرمه الشيخ أيَّما كرم وردّ

له اعتباره وكرامته، وودَّ لو أرسل إليها هاتفًا محمولًا أيضًا لكي يتواصل معها، ولكن علمه ببعد المزرعة، وعدم وجود تغطية لاسلكية فيها أثناه عن ذلك.

كل ما أرسله إلى أمه غيَّر بالفعل من حياتها، إلا أن عينيها لم تكف عن ذرف الدموع، وقلبها لم يطمئن لبعده، وحنينها لم يهدأ لاشتياقها إليه، كانت تبث حزنها إلى الله، وتدعوه راجية إياه أن يرده سالمًا غانمًا إليها، إنه قلب أم حنون ذلك الذي يُكِنُّ كلَّ الحب والشوق لولدها، تارة تبكي لجارتها، وهي تهتف بصوتها الآتي من أعماقها المحترقة:

ـ كل ما أرسله من نقود وأشياء قد حُرمنا منها واحتجنا إليها لا تغني عن نظرة واحدة في وجهه أو ابتسامة في عينيه.

ـ غدًا سيأتي ويملأ قلبك بالفرح والبيت بالأمل، وقته ستسعدي برؤيته، ليس رؤيته فقط بل ورؤية عروسه وهي زوجة له.

قالت ذلك جارتها، لعلها تهدأ ويقرّ قلبها في مكانها فكاد أن ينفطر. فهتفت الأم: لكن سفره طال واشتياقي إليه زاد، لا أجد في الطعام لذة ولا أهنأ بشراب، فبعد أن مات أبوه كان يملأ الدنيا عليّ وعلى أخوته.

أردفت جارتها:

ـ لكنها سُنْة الحياة، لابد أن يتغرب الإنسان كي يستقر كما تهاجر الطيور لكي تعود، ولا بد أن يتعب كي يستريح مثل القوافل التي تقطع الصحاري، ولا بد

أن يبتعد كي يقترب، فهو الآن كالشمس انتظارك له شوقًا للدفء، وشعاعها اللامع الذي يصل بينه وبين قلبك، وما هي إلا أيام معدودة، فقد مرَّ الكثير ولم يتبق إلا القليل ويعود، فهوني عليكِ عذابات قلبك، ألسنا أهلك وناسك، نأكل من طعام بعضنا ونقتسم خبزنا سويًا، فقط يفرقنا النوم، ثم نعود كما تعود الطيور كي تنشد، والعصافير لألحانها كي تغرّد، وذلك من صفاء قلبك وطيبة ما يحمله أصلك الطيب، ولقد أكرمكم الله بهذه العائلة الطيبة الأصل والمديدة الساس، التي خطبتِ منها تلك الفتاة الطيبة بطيبة أبيها وأمها، فهم يسكنون القرية منذ مهدها، ولا نشعر بوجودهم وكأنهم غير موجودين أصلًا.

توقف جريان شلال دموعها، وجفَّ مجراه على خديها، لكن أثار الدمع شد وجنتيها، فكلام جارتها أقنعها وهدَّأ من ثورة حزنها المنبعث من تراكمات الزمن البعيد.

عملت جاهدة في بناء البيت فتبدلت جدرانه التي تحتوي على الطوب اللبن الأخضر إلى القرميد الأحمر على مسطح البيت كاملًا، فقد ساعدها ما أرسله لها بفضل حب الشيخ له وإكرامه، وقد سكنت غرفة في إحدى بيوت جيرانها كما هي العادة في الريف، حتى تنتهي من عمله، وقف رجال القرية ومعهم مقاول كبير السن، ولديه الخبرة الكافية لتقسيم البيت كما يجب وما يتطلبه من بناء، كانت تقول لإخوته الصغار:

ـ هذه نقود أخيكم الذي يسكن ديارًا غير داره، ولا بد أن نحافظ عليها، ونزيدها ولا نأخذ منها.

&

تربعت سلمى على سريرها ذات مساء، مغلقة باب غرفتها بكيس من القمح، حيث إن غرفتها لا يوجد لها ما يغلقها، ومدت يدها تحت وسادتها، واستلّت خطابه ثم سحبته من مظروفه بأطراف أصابعها خشية أن تجرحه، فتحته برفق وفردت الورقة في يدها تقبض عليها بكلتا يديها، لم تقرأ الكلمات فحسب بل كانت تتفحص الحروف ورسمها حتى المسافة بين كل كلمة، كانت تقرأ على مهل:

ـ بعد السلام...

ردت هامسة في داخلها:

ـ وعليكم السلام.

ـ آنسة سلمى...

أتمنى من الله أن تصلك رسالتي وأنتِ في أحسن حال...

فأجابت:

ـ سأكون بخير عندما تكون أنت بخير.

قالتها، وأكملت قراءة الخطاب:

ـ أتمنى أن تمر الأيام سريعًا حتى نلتقي...

فهتفت:

إن شاء الله.

ـ... ولكن ما أخشاه في لقائنا ألا يعجبك الشخص الذي لم ترينه ولو مرة واحدة..

أجابت، وقد سرحت ببصرها:

ـ أتمنى أن أكون عند حسن ظنك بي.

ـ... أرجو منكِ الاهتمام بنفسك..

كانت تلك هي المرة الأولى التي تحس فيها أن هناك من يخاف عليها، ويطلب منها الاهتمام بنفسها رغم حرص أهلها عليها.

ـ.... وفي نهاية رسالتي لكِ مني السلام، وخالص تحياتي ولكم جميعا".

وقتها انقبض قلبها الصغير، وأحسَّت أنه غادر من أمامها، وغاب طيفه الحاضر، وصوته المسموع وإحساسه القريب، كانت تقرأ الخطاب مرات ومرات في كل مرة بشكل مختلف، مرة تهيم في بحر من الحب المتلاطم الأمواج، ومرة على شاطئ الأمل والانتظار، ومرة تمشي في طريق الخوف والترقب، حتى دقَّ الباب فجأة، واندفع فلم يفتح، فطوت الورقة وأسكنتها الظرف، ودستها تحت وسادتها، ومسحت وجهها لكي تنشطه من سكونه، وقامت لتزحزح كيس القمح، فإذا بأمها أمامها التي لم تكف عن النداء:

ـ لماذا تغلقين الباب؟

تراقصت الكلمات على شفتيها، لا تدري أيًّا منها تختار، فقالت بتلعثم ملحوظ:

ـ كنت أبدل ملابسي

قالت الأم:

ـ ولكن ملابسك كما هي.

كنت سأبدلها لولا أنكِ طرقتِ الباب.

لقد تسرَّب الحب إلى حنايا قلبها، من بين ثنايا الكلمات، ومن بين فواصل الحروف، انساب كماء نقي يترقرق في مجراه إلى داخلها، فتعلقت وانشغلت وتمنت.

الفصل السابع

شتاء السنة الثالثة التي يقضيها جاء بردها قارص، لقد طال به السفر وامتدت به الأيام، وأرخى الأمل حباله؛ فتعلَّق بها أكثر وقد عزم ألا تطول تلك الحبال أكثر من هذا، فنوى أن يجزّ حبل الحنين إلى أهله وداره وموطنه.

دخل البرد القارص دون سابق إنذار، برد يصلب العظام قبل الجلد، ييبس الزرع الأخضر فيحوّله إلى هشيم، أصفر جاف كأنما لفحت وجهه النار، تحط الطيور من الأعالي تتقي شر هذا الزمهرير فتتجمد على هيئتها، كأنها ترقد على بيضها جافة متيبسة، سموم تموج في صحراء فلاة واسعة لا يحدّها حدّ، ولا يصدُّها صدّ، لا أشجار تحمي ولا مبانٍ تمنع ولا جدران تتصدى، حتى الإبل لم تسلم منه، كان يضربها البرد فتنزف من أنوفها دمًا من شدته.

أي برد هذا، وأي سموم تشق الحجر، فضلًا عن الأجساد الضعيفة من بني البشر، والحيوانات على ألوانها والطيور على أشكالها، الثعالب في جحورها

تتجمد نازفة أيضًا من أنوفها متيبسة جافة من فروها كأنها حية، أجواء لا يقوى عليها أحد، ولا يتحملها بشر.

كان ناصر وكريشنا يتدثَّرون في ثيابهم الثقيلة وأغطيتهم، ولكنها لا تحول بينهم وبين زخّات البرد القارصة التي تتسلل من بين ثنايا أثوابهم وأغطيتهم، فكانوا يجابهونه بأعواد الحطب، وفروع الشجر اليابس، فيشعلون فيها النار ويلتفُّوا حولها، فإن ابتعد أحدهم نصف خطوة التهم البرد أطرافه.

كريشنا عليك تشغيل السيارة، سنذهب سويًا لجلب أعلاف الأغنام من برسيم وشعير.

أومأ كريشنا برأسه إيجابًا، وقد ذهب ليشغلها لكنها لم تعمل، حاول مرة أخرى وتابع المحاولة لكنها لم تعمل، كان الجليد يكسو زجاجها الأمامي وغطاء محركها، أشار إلى ناصر أن يأتي بماء ساخن يضعه على أصابع البطارية، وعلى الزجاج المغطى بالثلج.

لكن محاولات تشغيلها لم تنجح، فاقترح ناصر أن يذهبا للعمل بأي وسيلة أخرى حتى تطلع الشمس، ربما حرارتها ترفع البرد وتكسر الجليد والبرد الشديد، مرت ساعة بل ساعتان لم تحمَ الشمس، وما زالت مستترة وراء الغيوم في خجل تنظر بطرف عينها، ثم تغمضها ثانية وكأنها تداعب الكون كطفلة تستتر في ثوب أمها.

بالفعل لم تكشف الشمس أبدًا عن خدها، وكان الهواء أبرد، والغيوم ملبدة في حضن السماء تنذر بالمطر، فقد يدفأ الجو وتنتعش الأرض وتحيا، لكن نسمات الهواء كزخّات الماء المثلج يلطم الوجه فلا يُشعرك بحاسة الشم بل يفقدك الإحساس بأنفك، قال ناصر:

ـ لن نذهب اليوم لجلب الأعلاف، ستأكل الأغنام ما لديها اليوم، وغدًا نذهب ريثما يتحسن الجو وتستقر الأجواء، المشكلة إذا أكلت ما لديها اليوم وانتهى، ماذا ستأكل غدًا؟ فعندما نذهب ونعود وقت طويل، ولا ندري الجو سيصفو أم سيكون مثل اليوم، لابد أن نذهب.

أشار ناصر لكريشنا وهو يتحرك ناحية السيارة بهمة، وأشار بيده:

ـ دعنا نحرك السيارة قليلًا ربما تعمل.

دفعا السيارة دفعًا من الخلف حتى تحركت عجلاتها إلى الطريق المُعبّد بعيدًا عن كثب الرمال، جرت ثم قفز كريشنا خلف المقود، بينما ناصر مستمرًا في الدفع فقام بتشغيلها، وظل ضاغطًا بقدمه اليمنى على دوَّاسة الوقود حتى تسخن، انطلق الاثنان بعد أن ركب ناصر بجواره، وقد غابت أطرافه، واختفت داخل ملابسه، لا يظهر منه سوى عينين تراقبان من بعيد، وكريشنا لا يسرع؛ لأن صرير الهواء يتسلل من فتحات السيارة الكثيرة من كل جوانبها، ومن الأمام وبصعوبة يقبض على مقودها، وقد غاصت رقبته في معطفه المهترئ، تحدث إلى

ناصر يعبر له عن مدى برودة جسده، كان البخار يخرج من فمه، وكأنه يشرب الأرجيلة من قساوة البرد.

عادوا بالأعلاف بعد جهد جهيد وتعب شديد، وقد تصلبت أيديهم وأجسادهم، قال كريشنا:

ـ نضع الأعلاف كلها في مكان الأغنام.

حيث إن الأغنام نقلت من المزرعة؛ لأن مكانها قد أصبح مؤهلاً للزراعة، فقال ناصر:

ـ نضع الأعلاف في مكانها المخصص في المزرعة، ونأخذ ما يكفيها فقط خشية أن تفسده الأمطار، والمكان ليس بعيدًا على كل حال.

استجاب كريشنا لما طرحه ناصر، ثم ذهب الاثنان ببعض ربطات البرسيم وأكياس الشعير إلى مكان الأغنام، وقد سكن الهواء البارد، وغابت الشمس تمامًا في السماء، أين ذهبت الشمس والسحب الزرقاء والغيوم؟ نظر ناصر من بعيد، فقد رأى شيئًا لم يره من قبل، ولم يمر عليه من قبل، فقد حُجبت الشمس المتكاسلة نهائيًا، لم يعد يظهر منها شيئًا، وقد حُجبت الرؤية من أمامه تمامًا، كان يرى من بعيد ستارًا أسود مرتفعًا، أو كأنه بناء شاهق مرتفع من الأتربة والعواصف، وقد اختلط الأسود بالأحمر الدامي والأصفر القاتم، يأتي من ناحية الغرب لا يرى شيئًا سواه، وقد تبدّل لون الغيم في السماء، غبار وعواصف تبتلع الهواء، وتدهس الأرض وتطأ الشجر بوحشية فتقتلعه دوامات وراء بعض

وفوق بعض، من الشمال لا شيء، ومن الجنوب لا شيء ومن ورائه لا شيء، من ناحية الغرب فقط، حدَّق في رفيقه ثم نغزه بإصبعه فاستفاق، كان مشغولًا في ترتيب أكياس الأعلاف، فهتف فيه صارخًا:

ـ هيا بنا إلى المزرعة ألا ترى؟

فوجئ كريشنا بالمنظر، فقفزا إلى السيارة، وأحكما الأبواب، وقام كريشنا بتشغيلها، ولكن عادت نفس المشكلة فلم تعمل، مرة ثانية لم تعمل، حاول وحاول ولكن لا جديد، وناصر في ذعر من هول ما يرى:

ـ ابق مكانك، أنا سأدفعها وستعمل.

دفعها، تحركت العجلات الثقيلة قليلًا، غاصت في الرمال وانغرست في كثيب الرمل.

ـ ماذا نفعل؟

هتف ناصر، ففتح كريشنا غطاء المحرك، وقبض على أصابع البطارية وهو يشير لناصر أن يقوم بالتشغيل ففعل، ولكنها لم تعمل وناصر يقول:

ـ تأكد من التوصيلات.

نظر كريشنا عليها كلها، وهو يلقي نظرة ثانية خلفه على الغبار الذي يقترب الذي أحسّ أنه سيبتلعهم، يلفّون حول السيارة في حركة لا إرادية، ويضربها ناصر بقدمه، وكريشنا ينظر إليه مذعورًا، وبيده أشار ناصر:

ـ اتركها، وهيا بنا نمشي فالمزرعة قريبة.

تردد كريشنا فصاح فيه أن يتركها، فتركها وتبعه فهتف ناصر:

ـ عشرة دقائق بسرعتنا تفصلنا عن المزرعة، فلنجري قدر المستطاع سيسعفنا الوقت.

جذب صديقه من يده وهو ينظر للأمام مرة وعشرة ينظر للخلف، حتى لاح أمامهما الخزَّان العالي يرونه ليس بعيدًا، يبثّ الهمة في صديقه لكن مَنْ يسبق الريح العاتية، ومن يهزم العواصف المدمرة، ويصمد أمام الطبيعة المتقلبة؟

لم تمهلهما الرياح دقائق، فقد لفتهما بثيابها المتموجة، ولفحتهما بأطرافها المتناثرة، كثبان ورمال تخفي العين عن الرؤية والعقل عن الاتجاه، وتبتلع الهواء وتلتهمه ذعرًا، وداهمهما خوف أغشاهما، ما هذا؟ لم يسبق لهما أن رأوا ذلك من قبل، لم يمر عليهما ذلك المشهد المرعب، ولا ذلك المنظر الرهيب، نعم ابتلعتهما فأصبحا نسيجًا من دواماتها، وعجزا أن يفتحا أعينهما، تتقاذفهما حيث شاءت، وموجات الكثيب تلفح جسديهما، وموجات الرمال تغمرهما غمرًا.

صاح ناصر بقوة صوته:

ـ كريشنا، لا تبتعد أمسك يدي.

كان قريبًا منه فأمسك بيده بل تشبَّث بها، طمأنه ناصر رغم هول ما يرى:

ـ لا تخف سنصل، أعرف اتجاه المزرعة.

يسحب رفيقه وراءه، كلما تشتد العاصفة من ناحية أدارا لها ظهريهما اتقاءً لزوبعتها، وذرات الرمال التي ترتطم بوجهيهما، تفككت أغطية رؤوسهما،

وكلما أرادا لفها لم تمكنهما من ذلك الرياح السريعة، كانت أصواتها ودوامتها تصم الآذان، سمعا فيها كل الأصوات صفير وصهيل وتكسير، وقد تزاحمت الأصوات في آذانهما فأصبحا لا يميزانها، أُغمضت أعينهما غصبًا، لم يعرفا اتجاههما ممسكين، كلٌّ بيد الآخر خشية أن يفقده، وناصر يهتف:

ـ امشِ معي لقد اقتربنا، نحن لسنا بعيدين نحن قريبين، قريبين جدًا.

كلما اتجها يمينًا أخذتهما الرياح لتردهما شمالاً والعكس، أين الوجهة، وتلك العاصفة تشتد وتثور أمواج الرمال؟ تتلاطم كموج البحر فوق رؤوسهما، لها أزيز وصفير، كل الأصوات تُسمع دون رؤية، أسرعا معها، تيقنا أنهما على مقربة لكنهما لم يصلا بعد ساعة، فهتف ناصر:

ـ كل هذه المسافة ولم نصل إلى المزرعة، غير معقول، هي أقرب بكثير.

لم تنقشع تلك الرياح بل احتدت وزادت، وناصر يهتف:

ـ هل نرجع للأغنام نحتمي بها أم نعود للسيارة؟ فالأغنام في مأمن داخل الشبك المحيط بها، لن تتحرك خارجه ستتشبث ببعضها، لِمَ لَم نظل هناك؟

رجعا ومشيا يحسبان قبلتهما نحو الغنم، مرت ساعات ولم يصلا، حلَّ الليل المظلم، ولكن ما الفرق؟ فهما في ظلام منذ الثالثة عصرًا، ما الفرق إن دخل الليل أو لم يدخل؟ في كلتا الحالتين ظلام دامس، لم تر أعينهما سنتيمترًا واحدًا أمامهم.

إنها القيامة، نعم، إذا لم تكن القيامة هذه، فكيف تكون القيامة إذًا.

قالها ناصر، وبصوته العالي ينادي:

ـ يا رب..

ثم يرددها مرة ثانية وثالثة، ظل يرددها كثيرًا لعل الله ينجيه وصاحبه، وهتف في رفيقه فدعا مثله ورددها وراءه في صعوبة، نضب الهواء وجفّ، فلفا وجهيهما بربطات الرأس لعلها تخفف من حدة ارتطام الرمال بوجهيهما، تحطَّب حلقاهما، وجفَّ لعابهما وتشققت شفاهما، ليس هذا فحسب بل امتلأت بالرمال أعينهما وأجفانهما وآذانهما وحلقاهما..

دخلا في جوف الليل المُدْلَهِمّ وبطن الصحراء المخيفة، ظهر الموت أمامهما جليًّا مكشِّرًا عن مخالبه الحادة التي طوقت رقابهما، يرونه في كل مكان بل في كل شيء، في أصوات الريح تزأر كي تلتهمهما، وأمواج العاصفة كبحر غاضب تأهب لابتلاعهما، لا مناص من موت محتَّم هنا، إما بالعطش أو الجوع أو حيوان يفترسهما أو ردم تحت عواصف الرمال.

تاها عن الأرض والمكان والوجهة، كما ضلَّا عن الوقت فلم يعرفا مع أيّ عقارب يدوران، عقارب الساعة أم عقارب الصحراء أم عقارب الزمن؟ وهل العقارب التي ينتظرونها تقربهما من النجاة، أما تتحالف العقارب جميعها لنهايتهما، أمسك ناصر بكتف كريشنا، وكأنه أراد أن ينتصر على الخوف، ويهرب منه الذعر ويخشاه الموت، فيفارقه ويتحدى كل الظروف.

من جديد لا هواء ولا نسيم، فقط غبار وأتربة، عواصف ورياح تتسابق، لكنها لم تصل إلى حيث تريد فتسكن، أزيزها من جديد يخلع القلب من ضلوعه،

أخدتهما الرياح عُنوة في اتجاهها المجهول وطاوعتها أقدامهما المنساقة مرغمة حيث أرادت الرياح، ساعات طوال مرت، متى تنقشع؟ جثيا على ركبتيهما من شدة التعب، خارت قواهما من مجابهة الريح، نخَّوا كما تنخ الإبل اتقاء سمومها وموجاتها المتلاحقة، لعلهما يفلتا من ضرباتها التي تحفهما من كل اتجاه. لم يتغير شيء، تكاد الرياح تقتلعهما من الأرض كما تقتلع جذوع النخل، وجذور الشجر واستقرار الحجر.

صاح ناصر قائلاً لصديقه:

ـ انبطح أرضًا، انبطح أرضًا.

قالها وقد مَدَّ يده على رأسه، إشارة منه أن يفعل ذلك، فانبطحا أرضًا وكلٌّ منهما يضع يده على صاحبه حتى لا تفرقهما الريح كما فرقتهما الغربة عن أوطانهما وأهليهما في دروب مجهولة، فهما الآن ريشة لكن ليست في مهب الريح، وإنما في دوامة العاصفة الأكثر فتكًا، تدثَّرا بثيابهما، ونجحا في تغطية رؤوسهما تحت هذا الجحيم، ولكن إلى متى والى أين؟ لا يدريان..

تمر ساعات تلاحقها أخرى، وهما على حالهما لا يتغير شيء سوى نقص جهدهما وقواهما وشحوب جسديهما، لا يدريان هل كان الوقت ليلًا أم نهارًا، تفترش أجسادهما المتربة الأرض، زحفا إلى الأمام في اتجاه الريح زحفًا ثقيلًا، تحركا عدة أمتار حريصين على تماسكهما وقربهما خشية الضياع، ينشبان أظافرهما في الرمال

الجارية؛ ليتقدما خطوات، ولكن إلى أين؟ فقد أَبَيَا أن يظلا على وضعهما دونما بحث، فأرادا أن يغيِّرا واقعهما تحت سياط العاصفة التي تجلد ظهورهما.

بينما هما كذلك يزحفان ويتقدمان لمست يد كريشنا أرضًا ملساء ممهدة من أثر الدَّهس عليها، تابع تلمسها وتحسسها مرة أخرى، يبدو أنها طريق معبدة في الصحراء، لفحته موجة من السعادة المؤقتة بين موجات مهلكة تزاحمت مع موجات الرمال فوصلته، صاح وهو يجذب يد ناصر التي لم يفلتها أصلًا إلا ليتنقل، ووضعها يتلمسها هو الآخر، وهو يصرخ بلهجة كادت تكون مفهومة، فرح ناصر واعترته السعادة، ثم قال:

ـ يجب ألا نغادره يمينًا أو يسارًا ولا نحيد عنه، إنه طوق نجاتنا، لابد وأنها تؤدي إلى مكان ما.

زحفا مسافة قريبة، تحسَّسا الطرف الآخر من الطريق، وقد رصَّتها عجلات السيارات ودكتها دكًا، سعدا كثيرًا بهذا، كانا كَمَن عثر على كنز في الصحراء أو بئر ماء يطفئ جمر عطشه، إنه طريق لا يعلمان أين أوله وأين آخره، ولا في أي اتجاه نجاتهما؟

الرياح على حالها مسافرة، والعواصف تتسابق والرمال تأبى أن تحط رحالها على الأرض، مطلقة العنان للرياح أن تحملها أنّى شاءت، وما زالا في عتمة الليل على ما يبدو، لم يريا ظلامه الدامس، ولكن العاصفة أقوى وأحلك من ظلمة

الليل، حتى وإن جاء الصبح، فهل يقوى نوره أن يخمد هذا الغضب، وثوران الطبيعة العاصفة أعتى من أن يكشفها نور الصبح، والشمس في خدرها تترقب.

نفذت قواهما وخارت أكثر، فانقلبا على ظهورهما لعلّ نسمة هواء مدسوسة، وسط هذا الجحيم تتسلل إلى أنفيهما التي رُدمت أو تلطم وجوههما خطأ، هل يستسلمان إلى الموت الذي صاحبهما من وقتها قدمًا بقدم؟ هل تغرقهما الرمال وتدفنهما تحت جنبيها، أو تبتلعهما في بطنها، وكأنهما لا شيء؟ أم أن ما ابتلعاه من سفافها كافٍ لإخماد أنفاسهما المتحشرجة صعودًا وهبوطًا؟ غطتهما الرمال فأصبحا جزءًا من الصحراء، كومة من الرمال المتنقلة أو حجرين تكسوهما الرياح بالرمال ثم تكشفها ثانية، خفَّ حراكهما وتضاءل أملهما في النجاة كما ضاعت وجهتهما، فانكبّا ثانية على وجهيهما يتلمسان من العاصفة أهونها ليتنفسا، وافترشت حدودهما الأرض فلا حراك.

هل يغلبهما النوم على هذه الحال؟ نبشا الأرض بعد أن غابا فترة لا يعرفانها، يوقظ كلٌّ منهما صاحبه؛ ليطمئن أنه حي لم يمت، رفع ناصر وجهه الملتصق بالأرض، وحاول فتح عينيه التي غابت رؤيتها المحشوة بالطعوس أو الرمال الناعمة دامعة تصب ماءها صبًا، فغسلها. اختلط دمعه مع الرمال فالتهبت حدقتها، لكنه يرى شيئًا قريبًا، نشب أظافره في ظهر صاحبه ليوقظه، وهتف لينظر معه إن كان يرى ضوءًا أصفر يتخلل إليهما عن قرب، إنها سيارة تتحسس الطريق يلمع نورها من قريب.

أجسادهما الهزيلة قوت، واستردت عزيمتها وانتصرت على هزيمتها، عندها صرخ ناصر بصوتٍ قويّ، قاما واقفان كما لو كانا نيامًا فاستيقظا، تنحَّيَا قليلًا، وما إن اقتربت منهما حتى ارتميا على مقدمتها يضربان بأيديهما عليها، رآهما من بداخلها بعد أن سقطا بجوارها.. وقفت السيارة في مكانها التي لم تكن مسرعة بل كانت بطيئة تتلمس الطريق، وصاح من بداخلها:

ـ توقف يا خالي، فلابد وأن هؤلاء رعاة أغنام، وقد ضاعوا بالعاصمة، هيا نسعفهم على الفور.

نزلا وحملوهما من أمام السيارة حيث المكان الأكثر رؤية على ضوئها المنعدم إلا قليلًا، وحمدان يشير قائلًا:

ـ خالي، يوجد ماء بصندوق السيارة آتي به.

حمل حمدان أحدهم على ساعده، وقد نزل بنصف ركبته وأخذ الماء من خاله، ونضح على وجهه وسقاه حتى ارتوى، ثم حملاه إلى صندوق السيارة، وفعل مع الثاني نفس ما تم مع صاحبه، كانا يحملاهما بصعوبة في ظل هذه الأجواء المستحيلة.

استلقيا على ظهريهما عن متن السيارة ذات الكابينة الواحدة حيث لا متسع لهما بداخلها، وغطوهما بغطاء كان وراء كرسي القيادة، يبدو أنه مفرش للأعلاف، كان ناصر وصاحبه مدركين لما يدور، وقد ردَّ الماء حياة كادت أن تذهب إلى أن وصلا الرجلان، وكأنهم يهتفون في داخلهم:

ـ فليذهبوا بنا إلى حيث يريدون، نحن أحياء لم نمت، نحن أحياء لم نمت، ما زلنا أحياء.

دلف حمدان وخاله إلى داخل السيارة التي أصبح داخلها كخارجها، وقد غمرتها الأتربة فقلت الرؤية، إن لم تكن قد انعدمت، واستغربوا لهؤلاء المساكين الذين كاد الموت أن يفترسهم، والهلاك كان قاب قوسين أو أدنى من حياتهما، فنهش أجسادهما البائسة، وقد استغربوا لكمية المياه الهائلة التي شربوها، فقد عبَّوا من الماء عبًا. في هذه الأجواء الكل يلتزم بيته، لا أحد يخرج إلا لضرورة أو طارئ، حتى الطرقات تتوقف السريعة منها تجنبًا للحوادث والداخلية أيضًا خشية الاصطدام. فالبدو هم أدرى بجغرافيا صحاريهم يعرفونها كما تعرفهم، يمشون فيها سهلة ويعبرونها دون عناء مهما كانت ظروف الطقس وتقلبات الجو وتغير الطبيعة.

∾

كان الشيخ في بيته، لم يرقّ له الحال، لم يهنأ بنوم ولا جلسة، يعلم أن في هذه الأجواء يحدث مالا يروق له، نادى على الهندي عامل القهوة، ثم قال:

اذهب إلى عياد وأتني به الآن.

مهما كانت الظروف، يستجيب العامل دون نقاش ولا حتى سؤال، ذهب على الفور ونادى عيَّاد فجاءه مسرعًا خشية أن يكون أصابه مكروهًا في هذه

الأجواء، كان عياد أقرب للشيخ من ابنه مشعل الذي كان يتحاشى الظهور أمام والده.

ـ عمي هل بك شيئًا؟ هل أنت بخير؟

قالها عياد وهو يقاوم ضيق صدره، ويسحب هواء المجلس لعله يخلّصه من غبار الشارع الذي قطعه، قال الشيخ:

ـ أنا بخير يا عياد، ولكن لابد أن تذهب الى المزارع؛ لتتفقد العمال والمزارعين، وخاصة المزرعة الغربية اذهب إليها أولًا.

كان يقصد المزرعة التي يعمل بها ناصر وكريشنا وذلك لبعدها، فقال عياد:

ـ ولكن يا عمي من يستطيع أن يخرج الآن، ففي الخارج لا تكاد ترى شيئًا أمامك، فلنصبر بعض الوقت حتى تنقشع هذه العاصفة الكاتمة، فالسماء ملبدة بالرمال والأتربة بل محملة بها، وكأنه لم يبق على الأرض حبة من رمل إلا وحملتها الريح.

∞

استدار حمدان بالسيارة بعد أن استقروا بها بصعوبة بالغة في هذه الأثناء، فلم يستطيعوا الوصول إلى وجهتهم وعادوا بهؤلاء، أحكموا أبواب السيارة، وتحسسوا الطريق الذي أصبح صعب رؤيته عن ذي قبل، فنزولهما وفتح الباب قد صعَّب الرؤية أكثر، إذ أنهم لم يروا أمامها مترًا واحدًا، قال حمدان:

ـ خالي، أنا لا أستطيع السير هكذا، فأنا لا أرى شيئًا.

حاول أن تسير ببطء، ولا يضيع منك الدرب تلمسه بعجلات السيارة.

البدوي إن رأى تربة الأرض وعلامات فيها، على الفور يعرف أين هو وكيف يسير وإن غميت عينه، كان يمشي على مهل يتحسس الطريق، والمساكين منسدحين في صندوق السيارة الخلفي لا شيء يمنع عنهما الجحيم هذا، ولا الغطاء الذي فارقهم مع الريح، قال الخال:

ـ سنصل بهم في أقرب وقت إلى المشفى.

يقول ذلك وصدره يضيق ويختنق ويسعل حتى كادت تفارقه روحه لكبر سنه، لكنه شرب من ماء معهم وحمدان كذلك، ولكن ما الطارئ والمهمة الصعبة الذي لا يمكن تأجيلها حتى يخرجا في هذا الجو العاصف؟ أكانت أغنامهم خشية أن تضيع؟ أم إبلهم أن تبرح مكانها إلى الوديان والبراري؟ أم أن الله ساقهم لينقذوا هؤلاء الموتى إلى أن وصلوا إليهم أحياء وقتما حملوهم؟ كانت السماء تئن وتصدر أزيزَ المستغيث، ضاق صدرها عليها وعلى من تحتها، فبدأت عجلات السيارة بالصعود على مكان مرتفع، أحسُّوا بها في ظل رؤية تكاد تكون منعدمة.

ـ ضيَّعت الطريق يا حمدان، لا تستمر.

ـ أعرفه جيدًا يا خالي، وإن كنت مغمض العينين، هذه طلعة البهو.

ـ أعرفها، لكن الطلعة ليس فيها هذه الصخور التي تصعد عليها، أنت اتجهت ناحية الشعيب.

كانت هذه الصخور التي تحيط به توقف السيارة بعد أن استقرت مقدمتها على صخرة ممهدة للصعود وهبطت من الأمام، فأصبحت الصخرة تتوسط السيارة بعد أن ارتطمت بها هبوطًا، فهتف الخال:

ـ ارجع واجعل من مقدمة السيارة ناحية اليمين حتى تقذفها يسارًا، فالطريق بجوارنا على اليسار.

حاول الرجوع فلم ترجع، فقد كانت الصخرة حادة من الأمام فلم تصعدها العجلات ثانية، حاول ولكن بلا فائدة، فهتف حمدان:

ـ سأتقدم.

أردف الخال:

ـ الشعيب يلف من أمامك فكن حذرًا، تقدم على مهل.

لم تصعد السيارة، فضغط على دوَّاسة الوقود بقوة فقفزت للأمام، فأوقفتها العاصفة تهزّها هزًا وتحركها، لا ينقصها سوى الطيران، فرجع مسرعًا حتى يتخطى الصخرة، فانجرفت السيارة يمينًا، ثم مالت في الشعيب المنحدر.

نزل منها حمدان ليتحسس مكانه، لابد أن يسحبها للأمام بقوة، فوراءها المنحدر حتى الريح تدفعها هناك، حرَّك عصا الحركة وبقوة ضغط دواسة البنزين فتحركت لكنها تغوص من الخلف فتوقف دقيقة وعاود من جديد، انحدرت وانقلبت في الشعيب المنخفض، ثم استقرت على جنبها الأيمن.

كانت العاصفة قوية، وهم جميعًا في مهبها فكانت تتلاعب بهم، فساعدت على انقلاب السيارة سريعًا، وصوت مخنوق متشنج يهتف:

ـ خالي، خالي، هل أنت بخير؟

وبصوت يشقُّ الغبار صوت مشقوق يسعل وكأنه أتى من أعماق العاصفة:

ـ أنا بخير.

أرسل صوته وهو محشور في جانب السيارة الأيمن، يعلوه حمدان الذي يحاول رفع نفسه عن خاله والخروج منها وسحب خاله، تحسَّس مقبض الباب حتى التقطه بيده، لا يرى شيئًا وقد تهشَّم الزجاج الأمامي، لكن لم يسقط كاملًا، تدور العاصفة حولهم كوحش أراد الانقضاض عليهم جميعًا ودفنهم هنا، جذب المقبض ودفع الباب لم يستطع، فاتكأ بظهره على المقعد، ودفع الباب بقدمه، وما إن فتح قليلًا حتى اعترضته الرياح فخلعته في طريقها، سحب خاله من الأسفل، وخرجا منها يترنحون كشجرة معوجَّة، مالها إلا الاستجابة لما أرادته الريح، وحمدان يهتف:

ـ أعرف أين نحن الآن، نحن في الشعيب الجنوبي، هيا بنا نرى من حملناهم معنا، فليس لهم صوتًا مسموعًا.

لكن السيارة تتأرجح، ممكن تطرحها الريح إما على سقفها أو عجلاتها، ومن الممكن أن يكونوا قد ابتعدوا عنها قليلًا.

استقرَّ خاله في مكان، وجثا حمدان على ركبتيه يتحسس الأرض باحثًا عن الاثنين، ولكن لا أحد بالسيارة ولا حتى بجوارها، عسعس عليهما ولكن لا أحد، دار إلى الناحية الأخرى مغمض العينين تتقاذفه الريح التي تتموّج بشكل دائري نظرًا لانحدار الأرض، عثرت يده على جسد ممدد فأمسك بقدمه، وصاح فيه:

ـ هل تسمعني؟

لكنه لا يرد ولا يجيب، فمشى بيده على ساقه صعودًا نحو بطنه حتى صار فوق رأسه، ووضع كامل راحة يده على وجهه يتحسَّسه مناديًا عليه، ضرب خديه ضربًا خفيفًا علّه يرد أو يتحرك، ولكنه شعر بمن يمسك قدمه من الخلف صعودًا إلى ظهره، فالتفت وهو على حاله وأخذ يده، فجاءه صوت كفحيح أفعى تتلوى قبل الموت، وكأنه آتٍ من وادٍ سحيق سمعه، يقول:

أنا بخير.

سحب يده حتى صار عند رأس كريشنا المدد، وحمدان يهتف:

ـ مَنْ معك؟

أجاب بصوته المشقوق:

ـ كيشنا..

ـ إنه هندي، أليس كذلك؟

ـ بلى..

اقترب ناصر من وجه كريشنا، وهو يهتف بصوت لا يكاد يصل:

ـ كيشنا، كيشنا، هل تسمعني؟

قالها ثم غاب عن الوعي، فرجع حمدان خطوات حتى وصل لخاله، قائلًا:

ـ هناك واحد لا ينطق ولا يتحرك.

قاما ودفعا السيارة فاستقرت على عجلاتها باتجاه الريح، بعد أن تأكدا أن كلاهما لم يكن تحتها، وأتوا بالماء فشربوا وغسلوا وجوه هؤلاء، والخال يتحسسهم ليطمئن عليهم، ثم هبَّ واقفًا:

ـ أعرف الطريق، فهو ليس بعيدًا.

لكن حمدان لم يدعه يذهب بمفرده.

ثالث أيام العاصفة الساعة الخامسة عصرًا، كان جميعهم بالمشفى الذي كان مزدحمًا على آخره، حالات كثيرة تتردد ما بين اختناق وغياب عن الوعي، الكل متواجد ويعمل، الكادر الطبي بأكمله، أطباء ومساعدون وطاقم التمريض، حالة من الطوارئ القصوى، تعجّ المستشفى بالنساء والأطفال وكبار السن، حتى جنبات المستشفى لم تسلم من الغبار والأتربة رغم إحكامها إلا أن التراب قد تخللها، في عنبر الرجال على السرير المتواجد على يسار الباب يرقد ناصر شاحب الوجه هزيل الجسد يفتح عينيه اللتين أخذتا من الدم لونه، يسأل بلسان

ثقيل على النطق كأنه فقده، الممرضة التي تهتم به وتغرز إبر الحقن داخل قارورة المغذي البلاستيكية المتدلي منها خرطوم لمعصمه.

يسألها عن رجل أسمر البشرة، نحيف الجسد رافقه إلى هنا، بكلمات تخرج متقطعة مبحوح الصوت، فأجابته الممرضة بكلمات سريعة أطلقتها من فمها دفعة واحدة كانت تتحدث الإنجليزية، فلم يفهم منها شيئًا، فحاول نزع غطاء التنفس الاصطناعي عن أنفه وفمه حتى تسمعه، لكن يدها سبقته إليه، ومنعته من نزعه، وأردفت بدفعة أخرى من الإنجليزية، وأشارت أن يهدأ حتى يأتي الدكتور، ثم ذهبت وأحضرته، وقف أمامه الدكتور نذير، عرَّفه بنفسه من السودان، قائلًا:

ـ أحب أن أطمئنك، أنت بخير، لقد أجرينا بعض الفحوصات عندما أتوا بك إلى هنا، لا بأس فأمورك على ما يرام، فقط بعض الوقت معنا، وتخرج بإذن الله.

حدَّق ناصر في وجه الدكتور، وما إن انتهى من شرح حالته الصحية أراد أن يتكلم، فنزع عنه الدكتور التَّنفس، مردفًا:

ـ أراك قلقًا، لماذا كل هذا القلق؟ الأمر لا يستدعي ذلك.

قال ناصر بضعف:

ـ معي رفيقي جاء معي، أين هو؟

قال الدكتور:

ـ من جاؤوا معك بخير، وهم ليسوا واحدًا بل أكثر.

قالها الدكتور وأزاح الدكتور الستارة عن السرير المجاور، قائلًا:

ـ هذا واحد منهم لكنه نائم.

مال ناصر بجزعه ليراه لكنه لم يعرفه، كان ذلك النائم هو خال حمدان يعاني ضيق الصدر، وصعوبة في التنفس، قال الدكتور:

ـ هناك في آخر العنبر مَنْ جاء معكم.

لم يستطع ناصر رؤيته من مكانه، لكنه كان حمدان، وقد وُضِع أيضًا على جهاز تنفس صناعي، لكنه لم يعرف إن كان رفيقه معه هنا أم لا، وضع الدكتور نذير جهاز التنفس ثانية، وطلب منه عدم بذل مجهود حتى بالكلام والراحة، ومن وراء الدكتور الممرضة الفليبينية التي يراها بعيدة جدًا وتظهر له كخيال، كان يرى قصر قامتها طولًا، ويدها الطفولية البيضاء كفًّا كبيرًا، ووجها الصغير صفحة كبيرة بها نقطتان سوداوان غائرتان وهي تعدل من نومته، وتضع الوسادة تحت رأسه، وأخذت القطن والقماش الطبي المعقّم من إناء معدني؛ لتزيل كل آثار التراب من تحت عينيه، ثم غاب في نوم عميق.

الفصل الثامن

خطابه يصل إلى محبوبته المجهولة إلا من اسمها فقط، يعرف اسمها وصورتها الطفولية التي أتته مع أول رسالة مسموعة من أمه، التقطت الخطاب من يد أمها في خجل، كادت أن تطير به من مكانها، قدماها لا تستقران في مكانها، تريد أن تخلو بنفسها لتقرأه بل لتتفحصه، ظهر الحياء جليًّا على وجهها الملائكي الخجول، فأخذ من الورد حمرته، ومن الشمس حرارتها ومن القمر ضياءه، كانت كفرسة لمحت من بعيد صاحبها من يعتني بها ويهتم، تودُّ لو قطع خطامها فتفر إليه كالبرق. سألت في تلعثم:

ـ مع مَنْ أتت الرسالة؟

ويداها تتلقفان الخطاب من يد إلى أخرى، فلا يستقر في واحدة، أجابتها أمها:

ـ أرسله ناصر مع أشياء أخرى لإخوته، ألا تفتحين هذا الخطاب؛ لنسمع ما يقول وماذا كتب؟

قالت الأم ذلك وهي تعلم أنه لن يحدث وتفتحه أمامها وتقرأه، لكنها قالته مازحة فازداد وجه سلمى خجلًا، ثم أردفت:

ـ لن أفتحه الآن، سأفتحه حينما يكون لديّ وقت، فلديّ أشغال البيت أهم من ذلك الآن.

تظاهرت بعدم اهتمامها، فيما أنها لم تكن تتوقع وصول رسالة تخصها أصلًا، هدأ البيت وخيَّم السكون عليه بطبيعة فصل الشتاء، تناولت الرسالة برفق وتأنٍ، وقرأت ما عليها حتى هبط طرفها إلى الأسفل ناحية اليسار.

"يصل ليد: الآنسة سلمى"

لم تعلم أن اسمها بهذا الجمال إلا عندما عانقت عيناها حروف اسمها وكأنها تراه للمرة الأولى، أربعة حروف تراها غير التي تعودت على كتابتها حتى في الفصول الدراسية، فتحته بحرص حتى لا يتلف الظرف وبدأت في قراءته.

" اكتب رسالتي وأتمناها أن تكون الأخيرة ولا أضطر لكتابة غيرها، وأن يمضي الوقت سريعًا حتى نلتقي وقتها، فلا يكون لنا حاجة للرسائل، كما أتمنى أن تصلك رسالتي وأنتِ بكل خير.

عزيزتي سلمى، أطمئنك فأنا بخير لا ينقصني إلا رؤياكِ الغالية، ولا أخفيكِ سرًا فقد اشتقت لسماع صوتك، كما اشتقت لرؤيتك..

أتخيله هادئًا كتغريد كالبلابل، أو ناعمًا كزقزقة العصافير، كم أودُّ أن تجمعنا الأيام سريعًا فيكون اجتماع لا فراق بعده، كم أتمنى أن ترسو سفينتي على شاطئ

الأمان معكِ بعد عناء الرحلة، ربما طالت بنا الأحلام والأمنيات الجميلة، ولكني بانتظار واقع أجمل يجمعنا سويًا، فنصير روحًا واحدة لا تنفصل، يربط قلبينا رباط أبدي لا ينفصم، وقتها سأنسى عناء الطريق، ووعثاء السفر ومرارة الرحلة، فوقتها ستجتمع روحي برفيقتها لتبثها نجواها.."

ولم تطل رسالته وكأنه على وصول، فلقد ذهب في طرف الورقة من أسفلها بعد أن، قال:

"... لن أقول وداعًا، بل أقول إلى لقاء قريب..."

رأته في كل جملة، بل في كل كلمة بين الحروف ذاتها، سحبت رسالته الأولى برفق من تحت وسادتها ووضعتها بجوار الثانية، أكانت تقارن كلًّا منهما بالأخرى، أم أن رسالته الآن تكمل ما سبق؟ إنها نفس الورقة حتى بروازها الخارجي، نفس القلم وطريقة الكتابة.

أيفعل الحب ذلك مع قلب أخضر البرعم يرقاته ما زالت قيد النمو، أكان لها أن تتعلق بإنسان لم تره إلا في خيالاتها صورًا أو حروفًا مكتوبة كما هو أمامها الآن أو سيرة مسموعة؟ فإن طوت ورقته رأت حروفه مرسومة أمام عينيها، وإن طوت جفونها وأغمضتها تراها أكثر وضوحًا فتتعمد إغلاق عينيها من أجل أن تراه أكثر وأقرب، لقد تفتحت عيناها الهادئة، ووجدانها الصافي وقلبها اليرق على نسمات حب غائب، وكلمات ارتباط مجهول، والتهيؤ لبناء حياة جديدة في الخيال لم ترَ منها أيّ واقع ملموس، حياة غير التي اعتادتها منذ أن كانت طفلة.

غمرتها نشوة السعادة من أخمص قدميها إلى أطراف شعرها، كعود أخضر يتمايل بين موجات الماء الهادئة حين تغمره وردة يداعبها النسيم الرطب، فتنشد أجمل لحن طالما أحبته وتمنته، حب يطمئن القلب ويسكن الروح، وحياة تجمع كليهما فيكونا شمسًا دافئة في شتاء بارد، وقمرًا وضَّاحًا في ظلمة الليالي الطوال، ونسمة تغمر البيت بعبيرها ولطف عطرها.

الأنثى إن أحبت أعطت بسخاء..

وإن تعلقت روحها فداء...

وإن عشقت كانت بردًا ودواء

فتح عينيه الحمراوين المثقلتين بعد أن عاد من وادي النوم البعيد، وقد أحس أنه نام دهرًا كاملًا، وأنه لم ينم في حياته إلا هذه النومة فقط، لأول مرة يلامس جسده المقدد تيبسًا، والمنهك تعبًا فراشًا ناعمًا ومريحًا مثل فراش المشفى، أكان لابد أن يعيش تلك العذابات حتى يرتاح جسده في مكان كهذا، كان النور خافتًا، وعنبر المشفى هادئًا إلا من الأنفاس المتلاحقة، وأزيزَ صدر لمريض في آخر العنبر قد جثم النوم على صدره فأثقله. لم يكن أحد قريبًا منه، أراد أن يتحرك لكن ما زال معصمه متصلًا بقارورة المغذي التي شارفت على الانتهاء. رفع يده بثقل كأنها أطنان من التعب، ضغط مفتاح الإنارة بجواره، فأضاء فوق سريره نورًا أبيض كشف المكان، جاءته الممرضة القريبة على الفور، لم تكن هي

الممرضة التي رأها من قبل، فسألها عن مكان المشفى وهذا المكان الذي هو فيه، فأجابته بالإنجليزية وهي لم تفهم ما يقول، لكنها طلبت منه الهدوء حيث أنه بدأ في الجلوس والاعتدال، ثم كرَّر سؤاله وهي تشير بيديها أن يظل مكانه ويستقر ويهدأ، فاستجاب لها وبإيماءات رأسها وإشارة يدها أفهمته أنها تريد هدوءه.

أطفأت بيدها المصباح الأبيض، وسحبت الستارة حول سريره وخرجت، عند التاسعة صباحًا جاءه عيَّاد الذي وصله الخبر، اقترب منه وجلس على كرسي بجواره وأمسك بيده، ونظر في وجهه الشاحب، ثم قال:

ـ حمدًا لله، لقد أخبرني الدكتور أنك بخير، وأن الفحوصات والإشاعات التي تمت تقول ذلك، عندما علمت كنت قلقًا من نزيف أو كسور مضاعفة، لكن الأمر على ما يرام.

حوَّل ناصر نظره نحوه بعيونه المرهقة، وكأنها آتية من سفر لتوها، ولم يجبه عمَّا يقول أو يسمع له، وكأن الكلام لم يكن موجهًا له:

ـ أين كريشنا لم أعرف عنه شيئًا، لقد سألت عنه الدكتور ولم يجبني عنه..

أجاب عياد وهو يحاول التهرب من سؤاله:

ـ ستكون بخير كما قلت لك.

قال ذلك بعد ابتسامة عصية على أن ترتسم أتبعها بهزات رأس خجولة، لكن مكشوفة:

ـ وستخرج اليوم عندما يمر الدكتور المناوب، ويكتب لك الخروج.

ولكن ناصر استمر في سؤاله:

ـ أين كيشنا؟ لقد أروني رجلًا غيره.

لم ير عياد بدًّا من جوابه لإصراره على ذلك، ولكن كان يؤجلها حتى يخرج على الأقل:

ـ لقد حوَّلته المستشفى هنا إلى المستشفى العام؛ لأن الإمكانيات هنا أقل من متابعة وضعه الصحي؛ لذلك نقلوه هناك وبعد أن نخرج من هنا سنذهب على الفور للوقوف على وضعه الصحي ومتابعته.

انتابته حالة من الحزن، فاسترسل عياد في كلامه:

ـ إنه يحتاج إلى عناية فائقة غير المقدمة هنا.

ثم أردف مسرعًا، وقد تزاحم الكلام على شفتيه:

ـ لقد أتيت بأوراقك وبياناتك ليسجلوها ويكتبوا على خروجك.

أراد أن يبعد تفكيره عن هذا الموضوع، ثم ابتسم ابتسامة فاترة، قائلًا:

ـ هيا قم وانهض ما بك إلا العافية..

في مجلس الشيخ عصر هذا اليوم، جلس ناصر أمام الشيخ يروي له تفاصيل ما حدث منذ بداية الأمر عندما تركوا سيارتهم، وآثروا أن يمشوا على أقدامهم عندما تعطلت، فقال الشيخ:

ـ لقد كنتم قريبين من المزرعة، لكن يا ولدي في هذه الظروف يضيع التركيز ويتوه العقل، وتلفك الحيرة والتشتت من كل جوانبك، قدَّر الله وما شاء فعل، ها أنت الآن معنا وبخير.

ثم حكى له ناصر عندما رأوا أنوار السيارة الخافتة من بين الغبار كأنه حلم يعيشه ولم يكن حقيقة، حلم يصعب تصديقه، وحقيقة يصعب تخيلها، وقد ملأت العافية جسده المتراخي الهزيل، قال الشيخ:

ـ لقد أرسلهما الله إليكما في هذه الظروف من حكمته، أنا أعرفهم تمامًا، لقد كانوا ذاهبين لحلالهم(أغنامهم)، فلما رأوكم كان لابد من إنقاذكم، فقد علموا أنكم في العاصفة منذ بدايتها، وهذا وقت طويل؛ لذلك عادوا ولم يكملوا طريقهم وحدث ما حدث..

هتف ناصر المعافى إلى حد ما:

ـ لكني يا شيخ قلق على كريشنا، ونحن لا نعلم عنه شيئًا.

عياد هناك منذ وقت خروجك يتابع وضعه، والمسافة من هنا ليست قريبة، فهي تبعد حوالي مائتي كيلو، نأمل من الله له العافية، قم أنت الآن مع العامل لتأكل وتستريح، وفي الصباح لكل حادثٍ حديث، لكن قبل أن يفوتني لقد جاءك سلام من لندن، صَيّاح يبلغك سلامه، حملني إياه كما أوصاني عليك.

أجاب ناصر:

ـ وكأنه يعرف ما حدث لنا.

قال الشيخ:

ـ إن تصافت القلوب تحابت والتقت بلا موعد، القلوب النقية تتآلف تآلف الماء العذب في النهر الجاري، ينساب الشعور فيها كجريان الماء في النهر رقراقًا نقيًا؛ لذلك سنكرمك من أجل صداقتك بصَيّاح أكثر.

أجاب ناصر:

ـ يا شيخ أنتم غمرتمونا بخيركم ولا ينقصنا شيء سوى رضاكم.

لمصر يا ولدي وأهلها فضل كبير على سائر الشعوب، فكم علَّمت أبنائنا، وأرسلت بعثاتها في جميع الأقطار يحملون مصابيح العلم إليهم، فأناروا بها الدنيا، فلا تكاد ترى الكثير من المنشآت من مدرسة أو جامعة إلا وللمصريين بصمة خاصة عليها، حفظ الله مصر وأهلها، لكن شباب هذه الأيام لابد أن يدركوا دور مصر وأهميتها في قلب أمتها العربية عن طريق الاطلاع والبحث.

كان الشيخ يعرف قدر مصر الكبير، وقد شارك في حربها مع الكيان الصهيوني مع كتائب جاءت لمساندة الجيش المصري، فعاش مع المصريين، وتقاسم معهم الخبز؛ لذلك لم ينس ما كان بينهم.

بات ليلة طويلة من ليالي الشتاء الطوال قلقًا يعتريه الأرق، نومه متقطع لم يهنأ به، فكلما وضع رأسه وراح في نوم أفزعه هول ما رأى وما كان، فيفزع ويقوم قاعدًا تتسارع أنفاسه فزعًا، وحزنه على صاحبه قد زاد من قلقه، لم يتخيل أنه الآن في مأمن وأنه حي يرزق بعد ما رأى من جحيم وعذابات لم يكن يتخيلها

يومًا، ولو قُصَّت عليه ما صدقها، بين الفينة والأخرى كان يخرج من الغرفة إلى الساحة القريبة من المجلس، لا يرى أحدًا ولا يسمع صوتًا فيعود إلى الغرفة مرة أخرى.

كرر ذلك عدة مرات رغم برودة الجو، وقد ترك الغرفة الدافئة، لكن ما بداخله أحرّ من دفئها، يكسر بردَ الجو القارص، لاح الصبح وفي إحدى مرات خروجه صادفه ما لا يتمناه، فقد وجد مشعل وجهًا لوجه، شخصت عيناه وتسمرت قدماه ولم يتحرك خطوة، وكأنما فقد القدرة على الكلام من مفاجأة رؤيته، ورؤية غضبه الذي لم يفارق سحنته، والكآبة التي تلف وجهه دائمًا، وكأن النور قد ضلّ الطريق إلى وجهه.

ـ أيُّ صباح هذا الذي أستقبله بك؟!!

قالها هاتفًا في نفسه، وقد اقترب مشعل منه خطوة، ثم قال وهو يحدِّق في عينيه بغلٍّ دفين، وحقد يغلي داخله:

ـ أنت تعلم يا مصري أن من حال بيني وبينك غضب أبي، فلولاه كنت دفنتك هناك وليس لك عندي ديّة، ولن يعرف أحد لك طريق.

كانت الكلمات تخرج من فمه تقطر بغضًا وحنقًا، وقد دعاه بكلمة يا مصري ليست لمصريته، ولكن تقليلًا من شأنه وازدراءً له حسب أهوائه وما يراه هو، تمنى ناصر وقتها أن يصمت، ويلجم لسانه المنطلق كالسهم المسموم يصيب آذان من يسمعه ويسمم بدنه، وهو يردف في تشفٍّ:

ـ الهندي الذي كنت تدافع عنه الذي لا يُعْرَف له ملة مات.

ثم اقترب أكثر من صدره، وهتف في وجهه بصوته بحت قوته:

ـ ستلحقه عمّا قريب.

قالها ثم سار إلى حيث أراد، وما زال ناصر في مكانه لم يتحرك، فقط يسمع رقع نعاله وهو يمشي على بلاط الساحة، وينسحب نظره من على ظهره حتى اختفى، وقد صدمه هول ما سمع، وما قال مشعل دون أن يرمش جفنه ويحزن على رجل كان يعمل معه يومًا، فأي صباح يأتي به مثل هذا غير ما يحزن القلب، ويكسر النفس ويعكر الصفو، أبدًا لن يأتي من ورائه الخير، الخير يأتي ممن يحمل الخير في قلبه.

وكأن مشعل أراد أن يخبره بنفسه دون غيره، ويزفُّ إليه هذا الخبر المشؤم بوجهه الذي لا يعبأ بحياة الناس ومشاعرهم، يراهم أقل من ذلك فما هم إلا عبيد للعمل ولو انتهى أمرهم إلى الموت، دار بجسده يجرجر قدميه على بلاط الساحة، لا يكاد يرفعهما لتحمله متثاقلة خطوة تجرّ أخرى حتى دخل الغرفة فهبط بجسده على كرسي فيها، وسقطت رأسه بين قدميه، وظل يبكي بكاءً مريرًا، وينشج صوته بالبكاء حتى علا فلم يسيطر على نفسه، وكأن موت صاحبه قد جلب عليه كل الأوجاع ماضيها وحاضرها.

ظل على ذلك ساعات طوال يتردد عليه العامل الهندي الذي استيقظ من نومه مفزوعًا على نشيجه وبكائه، يربت بيده على كتفه مرة، ويقدم له الماء ليهدأ مرة

أخرى، وهو لا يعرف حتى اسمه، فقط رأوا بعضهما قبل سنوات مرة أو مرتين، طلبه الشيخ إلى مجلسه فقام إليه أصفر الوجه شاحب أكثر مما كان، وقد ضاقت عيناه من كثرة بكائه، يجرّ قدميه جرًّا، ودخل مجلس الشيخ الذي أذن له بالجلوس أمامه في الجهة المقابلة من المجلس، وعيّاد على مقربة من الشيخ، وابنه مشعل موجود ولكنه يبعد قليلًا عن أبيه، تمنَّى لو لم يكن موجودًا، ومعهم رجلين آخرين لا يعرفهما، نادى الشيخ بنفسه على العامل أن يقدم له القهوة ويقرب منه التمر، ثم قال الشيخ:

ـ يا ولدي، كلنا على هذا الطريق سائرون، كلنا أموات أولاد أموات، مَنْ منا سيُخَلّد؟ فقط نسأل الله حسن الخاتمة، لقد أخبرني عياد بمدى ارتباطك بالهندي، وحرصك الشديد وخوفك عليه.

كان الشيخ يوجه إليه الكلام وكأنه أخ له أو قريب أو فرد من أفراد عائلته، وهذا واجب العزاء، ثم أردف الشيخ:

ـ أعرف أيضًا أنك كنت ترأف به في الأعمال الثقيلة كما أبلغني عياد، رغم أنه ليس من جنسنا أو حتى على ملتنا، لكنك كنت مثال في تعاملك مع غير المسلم رحمة ورأفة كما أوصانا ديننا، وأنت لم يسبق لك أن تعاملت مع غير المسلمين، ولكنك لم تجزع منه يومًا، كنت تعد له الطعام والشراب؛ لذلك أعرف مدى حزنك عليه، لكن هذه هي الدنيا وسنة الحياة، وكلنا سنرحل وقتما يحلّ الأجل

وتأتي المنية، كل ما أريده منك أن تكف عن بكائك، وتستجمع قوتك من أجل ما ورائك حتى تستطيع أن تكمل طريقك وعملك.

وأردف الشيخ:

ـ كان عياد قد أتى من المشفى قبل قليل، ورغم هذا الجو إلا أنه لم يتأخر، فقد هدأت العاصفة عن الأيام السابقة وأخبرني بما صار هناك، وعلم أن سيارة الإسعاف قد تأخرت في نقله نظرًا لسوء الجو، وبُعْد المسافة وانعدام الرؤية، وذلك حال دون الإسراع على الطريق المقفل أساسًا، وطلب من متابعيه من الكادر الطبي أن يطلعوه على التقرير، فأطلعوه عليه وأن سبب الوفاة هو اصطدام الرأس من الخلف بجسم صلب أصابه بنزيف داخلي ففقد الوعي على إثرها، لكن ظل قلبه يعمل حتى الساعة الواحدة والنصف من صباح اليوم، كما أبلغوه أنهم لم يدَّخروا جهدًا من أجل إنقاذه، وعمل كل ما يلزم، وكل ما في وسعهم خلال هذه الساعة التي تسبق وفاته، إلا أن حالته لم تكن على ما يرام. أما من ناحية الإجراءات فلابد من تواصل الجهات المختصة مع سفارته، ونحن نتواصل مع أهله حتى نرى كيف يتم دفنه هنا أم سيسافر إلى موطنه، كل هذه التفاصيل أطلعتك عليها لأهميتك عندي، ولأهمية هذا الشخص عندك، ففترة ثلاث سنوات ليس قليلة قضيتموها سويًا، والآن أريدك تستجمع نفسك لإكمال ما ورائك، فلا يليق بك هذه الحالة التي لم نعهدها عليك من قبل.

كان يسمع هذا الحديث من الشيخ، ونظره أمامه خافض الرأس يرمق الشيخ بنظرات سريعة، ثم تستقر أمامه ثانية، وأمامه فنجان القهوة المصبوب لم يرفعه ولم يلمس شفتيه، متشابكة أصابعه يفركها فركًا، رفع طرف عينيه التي تكاد تكون ملتصقة بمادة لاصقة من آثار دموعه، ثم قال:

ـ لو تسمح لي يا شيخ، أنا لن أستطيع أن أكمل العمل، فحتى الذهاب إلى المزرعة قد أصبح مؤلمًا لي.

أجابه الشيخ:

ـ ولِمَ يا ولدي؟ هذا عملك وحياتك ورزقك، لن تتوقف الحياة بموت أحد، ولا أحد منَّا يدري هل يمسي أم لا؟

يا شيخ كيف أذهب هناك وأعمل، وكان معي شخص لمدة ثلاث سنوات، وقد مات بهذه الطريقة في وسط هذا الجحيم الذي لا ينسى، كان معي خطوة بخطوة نعمل معًا ونأكل سويًا، رغم أننا لم نكن نفهم ما يقوله كل للآخر إلا بالإشارة في غالب الأحيان أو كلها، كيف أجلس في الغرفة وأرى مكان نومه وأنا متيقن أنه مات، وأعلق ملابسي مكان ملابسه على الحائط؟ إن عملي وذهابي هناك صعب وصعب جدًا في هذه الوحدة الموجعة، فإن كنت تحملتها سابقًا إذ لم يكن معي أحد وتحديت كل شيء حتى الخوف لم أهابه؛ لأني أردت أن أكون شيئًا، وأثبت لنفسي أني جدير بالأفضل، يا شيخ على الأقل أحتاج فترة من الراحة

ليست هنا، ولكني أريد السفر، فأنت تعلم عني كل شيء حتى عنواني تركته عندك، وإن كتب الله لي العودة فليكن ما يريد..

صمت الشيخ لحظات، مرت على ناصر سنوات استوعب خلالها كلامه، وأحس بألمه وتفهَّم وجعه، وعرف أن ذهابه هناك أمر لا يتحمله، كان الرجل به من الطيبة الكثير، كان شيخ في قبيلته يفعل من الخير الكثير لم يغضبه على شيء، هتف الشيخ قائلًا:

ـ يا عياد، الرجل هذا يجلس في غرفة العامل هنا، وعندما تنتهي أنت من إجراءات المستشفى تبدأ في ترتيب أمور سفره، وأوصيك ألا ينقصه شيئًا.

رد عياد باهتمام وهو يعير عمه سمعه وبصره، ويومئ إماءة قوية:

ـ كما ترى يا عمي، أبشر ما يصير إلا الخير.

بدأ في ترتيب سفره وحزم أمتعته بعد أن تفهَّم الشيخ حتمية سفره، ولأن الشيخ على علم بكل أحواله في مصر فقد سبق وجلسا سويًا، حتى خطبة العروس كان على علم بها حينما خطبتها أمه وهو لا يعرفها ولم يكن رأها من قبل، مما أضحك الشيخ كثيرًا وقتها، وهو يقول:

ـ أنت خطبت على طريقتنا، إذًا أنت منّا من الآن.

وامتدت ضحكته العالية، وأبلغ الشيخ أهله أن يجهزوا له بعض الهدايا لعروسه، وقد كان ذلك من زوجته التي أهدتها خاتم من الذهب، وحتى بناته أهدوها معه ملابس تحتاجها العروس في عرسها.

حتى عيّاد قال له:

ـ ناصر سأهديك هدية متواضعة مني أرجو أن تقبلها.

رد ناصر:

ـ إن عمك لم يبخل بأي شيء، إنه يعاملني معاملة أولاده.

قال عياد:

ـ عمي يحبك لحب صَيّاح ولده لك، هذا أولًا، وثانيًا عمي ما كان يتوقع أن تنتج المزرعة في هذه الفترة، ولكنك بذلت مجهودًا كبيرًا فيها حتى أصبحت واحة خضراء وسط الرمال، أنت مجتهد وأمين لذلك الكل يهتم بك، والآن لا تنسينا هديتك.

قالها مبتسمًا، ثم أخرج كيسًا بداخله زجاجة عطر غالية الثمن، ثم قال:

ـ هذه من أجل أن تتذكرني كلما استعملتها.

أجابه ناصر:

ـ لا يرد الكريم إلا اللئيم، قبلت هديتك، ولكن هديتك هذه لن تجعلك تتكاسل عمّا طلبته منك من الذهاب لشراء ما تبقى من أشياء.

قال عيّاد:

ـ إن أردت مصر نفسها أنا معك.

أردف ناصر مبتسمًا:

ـ كل هذه التجهيزات من أجل مصر نفسها.

ثم امتدت ابتسامتهما، وارتفعت فوق رؤوسهما كطير السلام ينشر المحبة بأجنحته فوقهما.

∾

اشترى ناصر ما يناسبه من ملابس، وقد أخذه صاحبه لمحلات فخمة وقيّمة، لكنه لا يشتري إلا ما يجده مناسبًا لنفسه وإخوته وأمه، وقعت عيناه على بدلة عرس قيّمة، وقد رأى نفسه فيها فسأل العامل بصوت منخفض عن سعرها، فلما أخبره أكمل سيره داخل المحل وابتعد، وعيّاد يرقبه من بعيد، ثم صاح على العامل ليسأله عمَّا كان يسأل عليه ناصر، فقفز ناصر بينهما، قائلًا:

ـ لا شيء، لا تشغل بالك.

كرر عياد سؤاله للعامل، فقال:

ـ عن هذه البدلة.

قال عياد:

ـ أنزلها الآن.

وناصر يردف في خجل:

ـ أنا فقط كنت أريد أن أعرف سعرها.

قال عياد:

ـ وأنا قررت أنها لك.

عوضه عياد كثيرًا بطيبته عن صَيّاح الشاب الوسيم المحبوب، ودائمًا ما يتساءل عما إذا كان صَيّاح شقيق مشعل، فلم يكن يستوعب تلك الفكرة في رأسه، فصَيّاح يشبه أباه في طيبته وكرمه، كيف لمشعل أن يكون بهذه الفظاظة؟ نعم البطن تحمل الزين والشين.

بعد عودتهم إلى البيت وترتيب معظم أموره طلب ناصر من عيّاد الذهاب إلى المزرعة، قال عيّاد:

ـ إذا أردت الآن فلنذهب.

ـ لا، ليس الآن، لا أريد الذهاب في المساء، دعنا نذهب في الصباح.

ذهبا في الصباح معًا وترجلا من السيارة، نزل ومشى بخطوات مترددة نحو الغرفة، اقترب منها وعياد وراءه بخطوات مترددة، فتح بابها فظن أنه سيجد صاحبه جالسًا فيها كما عهده سابقًا حينما يراه متعبًا فيرسله للراحة والنوم، مرت عيناه رويدًا رويدًا على كل شيء فيها، كل ما فيها يكسوه التراب، لون الأرض والرمال، الجدران والأغطية والملابس وأواني الطعام، كلها بلون الصحراء، لقد كساها التراب وألبسها ثوبه وغطاها تمامًا، إن شئت قل دفنها دفنًا.

كان المنظر غريبًا على عينه، لم يره ويتوقعه منذ بدايته وحتى الآن، وقد غطى الحزن قلبه وكساه، كما غطى كل ما يرى ودفنه، دمعت عيونه دمعًا حارًا على

إنسان لم يعرفه من قبل من بلاد غير البلاد وملة غير الملة، لكن القاسم المشترك بينهما أنهما التقيا هنا حيث تقاسما الخبز سويًا.

فقد توارى تحت التراب وانتهى أثره، لكن التراب أبى أن يترك له أثرًا حتى في ملابسه، فقد دفنها معه، أو إنها أبت أن تعيش بعده، وتتنفس هواء لا يصله، ونسيم لم يعد يُستنشق، ثم سأل نفسه وعيناه ما زالت ترمقان ملابسه المعلقة على الحائط:

ـ أتكون تلك الملابس وكل أغراضه أوفى له مني، فأبت أن تعيش بعده؟

استدار بثقل يحمله وقد مسحت يده عينيه قبل أن يلحظها عياد الذي يرقبه في كل شيء، خرج دون أن يلمس منها شيئًا، تركها ترابًا كما استقبلته ترابًا وعاد أدراجه محملًا بحزنه، تمنى لو دفنت أحزانه وويلاته التي عاشها هنا في مكانها تحت ذلك التراب الذي كاد أن يدفنه تحته ويرجع كما جاء.

ثم تمتم لنفسه مستيقظًا من أفكاره:

ـ وحده السفر الكفيل بإزالة كل هذا ومحوه من صدري.

هتف في عيَّاد بعد صمت طويل، وما زالت السيارة تسير إلى البيت:

ـ لم أعد أتحمل المكوث أكثر من ذلك، أرجو منك أن تنهي الأوراق اللازمة للسفر.

أجابه عياد مسرعًا:

ـ لا عليك، لا تحمل همًّا لذلك.

وكأنما أراد أن يخطفه من سوء حالته، فأردف قائلًا:

ـ أنا سأنهي كل هذا في أقرب وقت، فقط قل لي متى تنوي؟

أجاب مسرعًا:

ـ إذا استطعت أن يكون غدًا فلا أمانع.

ـ غدًا انهِ أوراقك، وليكن سفرك اليوم الذي يليه إن وجدنا مقاعد شاغرة، أو بعده على أقصى تقدير.

تحدد يوم سفره كان يوم الأربعاء، في ذلك اليوم تشحن الأغراض صباحًا على متن شاحنة كبيرة تصل مبكرًا إلى الميناء البحري، ومن ثمَّ يتم ترتيبها على حاويات تدخل إلى الباخرة معدة لذلك، أما هو فميعاد سفره كان في هذا اليوم في الخامسة مساءً.

∞

اعتنى به عيَّاد جيدًا لطيبته وكما أوصاه عمه، اختار له ملابس السفر من بين ملابسه التي اشتراها، ورتّب أوراقه وألزمه بالحفاظ عليها رغم حرصه الشديد عليها، رتبت هذه الأمور في اليوم الذي يسبق السفر، وفي اليوم التالي دخل عليه فجأة وهو مشغول في ترتيب أموره قبل سفره بساعات، ثم وقف أمامه هاتفًا، وهو يبتسم:

ـ تخيّل ما الذي أحمله لك؟ شيئًا لا تتوقعه.

قال ناصر مبتسمًا:

ـ وماذا يكون؟

قال عيّاد:

ـ أنا من أسألك.

ـ أنت قل ماذا يكون؟ الآن تريدني أن أفكر، وقد أصبح عقلي كله في السفر، قل ماذا هناك وإلا لا أريد أن أعرف.

قالها وقد أظهر عدم مبالاته، لكن يريد أن يعرف ماذا يحمل له، فقال عيّاد الذي لم يطل عليه مزاحه:

ـ عندما ذهبت لأخذ خطابات المؤسسة من صندوق البريد الخاص بنا، وجدت لك خطابًا لك قد وصل من عدة أيام، ونظرًا لما حدث في الأيام السابقة لم يفتح الصندوق أحد، وظل إلى اليوم، كنت ستسافر وتتركه.

أجاب ناصر:

ـ وماذا أفعل برسالة جاءت الآن، وأنا على بُعْد يومين أو ثلاثة عمَّن أرسلوها.

قالها وقد وقف تمامًا عمَّا كان يفعله منتبهًا لحديث عياد وهو يتفحص ما يخفيه في يده، وعيّاد يقول:

ـ إذًا لا تريدها.

لكن ناصر لم يمهله أن يكمل فخطفها من يده، قائلًا:

ـ كيف لا أريدها، فقط أمزح معك.

تساهل عياد في تركها؛ ليفتحها ناصر بسرعة ويقرأها بغير تأنٍ، كانت غير ما سبقها من الرسائل، فقد كان يمكث الساعات الطوال على الرسائل التي تأتي من أمه، كان بداخلها سلامًا منقولًا من خطيبته، لكن هذه الرسالة بالذات كانت من محبوبته، كانت تلك الرسالة الأولى التي تأتي منها، أول مرة يرى رسالة منها تطمئن عليه وتسلّم، لم تكتب الكثير ولم تتحدث كثيرًا، لكنها تركت رقم هاتف في أسفل الورقة، وكتبت تحته:

"أستاذ ناصر ممكن تتصل في أي يوم بعد العصر على هذا الرقم، بعد عودة أختي من دراستها، فهذا الرقم يعود إليها.."

تُرى ماذا أرادت هذه الصغيرة؟ ومن أشار عليها بهذا؟ أم أرادت أن تسمع صوته أو يسمع صوتها؟ كان الوقت بعد العصر بالفعل، فهتف في عيّاد قائلًا:

ـ أريد الاتصال بهذا الرقم، كيف يمكنني ذلك ومن أين؟

لم يكن يريد الاتصال من هاتف عيّاد الذي عرض عليه ذلك، إلا أنه فضل أن تكون مكالمته لها خصوصيتها.

قال عياد:

ـ ما عليك، الآن أدبر لك الأمر.

أخذه عياد إلى كابينة للاتصالات، فطلب ناصر مدتان انتهتا بين غمضة عين وانتباهها.. دقائق معدودة سمع فيها صوتها لأول مرة، كان كما توقعه كتغريد البلابل، سرح في صوتها الهادئ، كأنما تحدثه وهي أمامه حين قالت:

ـ أنا بخير الأهم هو أنت، أتمنى أن تكون بخير.
تحجّر فمه أكثر من مرة وهي كذلك، ضاعت كل الحروف والكلمات من أمامها، أصبح الكون صفحة بيضاء ليس عليها علامات أو خطوط إلا من صوتها يسمع في كل الأرجاء، سمعها وهي أيضًا سمعته يَزرَد لعابه الجاف، ويبلغها بسفره حيث قال:
ـ قريبًا نلتقي، أنا رحلتي اليوم، وأرجو إخبار أهلي بذلك.
ثم سلَّم وجاءه صوتها محملًا بكل ألوان الورود وكل تغاريد الطيور حينما تلفظت بكلمتين لا ثالث لهما، وانقطع الخط بعدها:
ـ تيجي بالسلامة.
وخرج منتشيًا بهذه المكالمة غير المتوقعة أبدًا، كان ناصر غير عابئ بالمظهر، كان أكثر ما يشغله السفر ذاته وطول المسافة، فتمنى لو أغمض عينيه وفتحها فيجد نفسه في بيته بين أهله، احتضنه عيّاد طويلاً وهو يربت على كتفه داعيًا الله أن يصل بالسلام، وأن يكتب الله لهما اللقاء ثانية، تبادلا تلك الكلمات، والعناق الحار وسائق الحافلة خلف مقود القيادة، يده لم ترتفع من على آلة التنبيه يستعجل ركوبه، وأن ينهي طول السلام.
رأى نفس الحافلة التي أقلَّته هنا، حتى لونها لم يتغير والمكان الذي نزل فيه، حيث استقبله مشعل وقدَّم له العصير البارد يومها، فقط السائق هو المختلف، ثم هتف في داخله وهو يصعد سلم الحافلة الخلفي بعد أن أشار بيده لصاحبه

بالسلام، ورمقه بنظرة بعد نصف التفاتة إليه قطعها السائق بغلق الباب الكهربائي:

ـ ثلاث سنوات مرت منذ جئت هنا في هذا المكان، والآن أعود.

ترقب الحافلة وهي تدور لتستقيم في طريق العودة، وقتها بدأ الحزن الجاثم على صدره يرفع قدمه الثقيلة التي تطأ صدره رويدًا رويدًا، انطلقت لتعود به ثانية ممتلئة بركابها، لا يكاد يكون هناك مقعد شاغر، فيها أناس كثيرون أصواتهم عالية وضحكاتهم عريضة واسعة، ينادون بعضهم البعض بأسماء مازحة غير أسمائهم فرحًا ومزحًا وتهليلًا، سعداء بعودتهم بعد طول سفر منهم، من له سنة لم يرَ أهله وبيته، ومنهم من له سنتان وثلاثة وأكثر من ذلك، فلِمَ لا يكون الفرح والسعادة عنوان رحلتهم، جالس على مقعده يسمع الضحكات والأحاديث التي يطلقونها، يضحك لضحكم ويبتسم لابتسامتهم، لكن لم يشاركهم في أي حديث..

كل ما يحدث أمامه الآن عكس رحلة المجيء تمامًا، في رحلة المجيء الكل صامت لا يتحدث أحد، وكأن الكلمات خاصمت الشفاه وهجرتها، وإن خرجت كلمة للضرورة تخرج عنوة لأمر مهم، وكأن الكل قد بلع لسانه، أو فقد نطقه وجفّت الكلمات في الحلوق.

أما الآن شيء مختلف، تتزاحم الكلمات على الشفاه أيُّها يخرج أولًا، وتتراقص على مسرح الألسنة قبل أن تخرج فرحة منتشية كطيور تنفض أجنحتها بعد نوم

عميق في أعشاشها، وترنو الآن للطيران بعد طول صبر ومكوث، الآن يطلق لها العنان أن تتعانق وهي تحلّق عاليًا متشابكة بالمحبة والسعادة.

قطعت الحافلة مسافة الليل الطويل، كانت ألف كيلو مترًا، ما بين وقوف للاستراحة، وبين هدوء وتمهُّل في طريق فردي ضيق، وسرعة في طريق مستقيم، بين وشوشة الأحاديث، وأنفاس من غفى وداهمه النوم المؤقت، حتى وصلت في السابعة صباحًا إلى مكاتب تأكيد الحجز على الباخرة، فانكبّوا من بابيها الأمامي والخلفي، كانوا أشبه بكيس قمح، شُقَّ من جانبه وقاده تزاحمهم إلى الأسفل، حازم على أوراقه كما حزم عليها سابقًا، غير أن جواز سفره قد سلَّمه للسائق مع باقي ركَّاب الحافلة لتأكيد الحجز على متن الباخرة، يضع أوراقه في شنطة صغيرة سوداء لها حزام طويل يتدلّى من على كتفه على جانبه العكسي.

مسح المكان بعينه، لم يره من قبل، لم تمرّ الحافلة من هنا في رحلته الأولى، عشرات الحافلات مصطفّة بشكل منتظم كأنها في طابور عسكري بألوان مختلفة، كلٌّ منها أفرغت راكبيها، وهدير محركاتها يزأر ويهدر في المكان، ودفء أدخنتها يكسر البرد القارص.

رمقت عيونه من حوله، كانوا من كل الأقطار والبلاد، وجوههم مبتسمة ضاحكة يجلسون جماعات، الثلاثة والأربعة والخمسة مع بعضهم، الثوب الصعيدي كان هو الغالب على المكان، ولهجتهم الجميلة والبشرة السمراء بسمار النيل الأكثر حضورًا، تلمع كلما سطعت عليها الشمس، ضحكات تتعالى

وتتواصل من كل مكان ترفرف فوق رأسه ذهابًا وإيابًا، متداخلة من كل الجوانب والاتجاهات، تغزل خيوطها الشفاه ما تكاد ينفلت طرفها من شفاه إلا لضمتها أخرى، وتمرّ بالأولى حتى تنتهي بالأخيرة في ترتيب متناسق.
يمشون ناحية اليمين، وآخرون يعكسون سيرهم، وآخرون يقطعون السير، حركات عشوائية حتى بدون غاية، وقد أبوا ألا يستريحوا ويهدأوا إلا في أحضان من أحبوا.
وترى آخرين يفترشون الأرض على ورق من الكرتون للجلوس عليه، يتوسطهم طعامهم الذي يلتفون حوله، مرت أربع ساعات والناس على هذه الحالة لا يهدأون، يراقب ويرى ويسمع ويمشي حتى وصل إلى المحل الكبير والوحيد في المكان، فدخله ليجد زحامًا شديدًا لا يتخلف عن خارجه، هل هم آخرون أم أنهم مَنْ كانوا بالخارج ودخلوا معه؟ دار في المتجر الكبير، حمل عدة أكياس من الخبز، أعجبته لون الجبن الأصفر، فاشترى منه بعد أن زغلل عيناه والليمون المملح أيضًا، ووقف في طابور طويل للحساب؛ ليخرج بعيدًا ويفترش كرتونًا تحت شجرة صغيرة بجوار أحد المباني، وجلس ليأكل طعامه، قطع من الخبز وهيأه ليأكل أول قضمة منه، ولكنه هتف في داخله:
لماذا أنا الوحيد وسط كل هؤلاء؟ لا أكاد أرى واحدًا يمشي وحده، على الأقل اثنين، حتى وحدتي في سفري إلى بلدي، أليس لي الحق أن أضحك وتتعالى صيحاتي معهم؟

ردَّ صوت من داخله:

ـ مثلك لا يضحك، ستخونك ضحكتك الدفينة في أعماقك، لابد من البحث عنها بداخلك حتى تخرجها، إنها تختفي بين ضلوعك، كلما طلبتها أو أردت محادثتها.

كل ذلك ويده ببطء تقطع الخبز وتفتته دون انتباه منه، يلوك ما في فمه ببطء وقد نسي أن يبتلعه، شاخصة عيونه في مكانها لا تتحرك، عصى محرجيها أن يتركا عينيه في أمان بحريتها، وقد قبضا محجريها عليهما قبضًا، ثم استفاق على صوتها الشجي وكلماتها الناعمة وإحساسها الدافئ، سرى صوتها في جسده فمدَّه بالدفء والنشوة والسعادة، وتحركت ابتسامته حتى تجاوزت شفتيه فابتسم، إنه الحب الذي ينتظر بشغف، لقد أصبح قريبَ المنال، حدَّث نفسه:

ـ بالأمس سمعت صوتها للمرة الأولى، وغدًا أو بعد غدٍ سأراها، يفصلني عنها ذلك البحر فقط.

قام إلى مكان الحافلة حاملًا في يده كأسًا من الشاي أخذها من كافتيريا بجواره، كان السائق يقف أمام الحافلة بجوار بابها الأمامي، وفي يده جوازات السفر، وفي داخل كل جواز ورقة تأكيد الحجز والسفر على الباخرة، فلا يمكن الصعود إليها إلا بتلك الورقة، إنها ورقة العبور إلى الشاطئ الآخر.

يعلو صوته بأسماء الركاب، وكل من يسمع اسمه يردُّ عاليًا بوجوده، ثم يناوله جوازه ويصعد الحافلة، حتى جاء دوره وسمع اسمه فخانته حنجرته في الرد، ولكن عوضته يده المرفوعة فصعد، دقائق وانطلقت الحافلة ناحية ميناء المغادرة القريب.

الفصل التاسع

بدأت الفرحة تطفو على ساحل صدره، وتزيح قارب الحزن الراسي على شاطئ قلبه، داعبته السعادة ولامسه الانشراح، لمعت عيناه فرحًا عندما رأى مبنى الميناء على مقربة منه، وصواري الباخرة شاهقة تظهر من خلف المبنى بعيدًا، أطلق العنان لقدميه طيرًا تحمله وسط الجموع الغفيرة، تتسابق أقدامهم تاركين وراءهم تعب السنوات الماضية، وقد أفرغوا حقائبهم من الحزن والهم والتعب، ولم يحملوا فيها غير التسامح والرضا والشكر، أما السعادة والفرح والحب ليس لها مكان إلا في قلوبهم، لم يتركوها في الحقائب، فلا يليق بالسعادة والفرح والحب إلا القلوب الطيبة التي تحملها فقط.

وصلوا إلى باب الصالة الكبيرة، صالة الانتظار، دخل وسط زحام البشر وزحام الحقائب، وما إن دخل ورأى الصالة الواسعة حتى نطقها عالية:

ـ يا الله ما هذا؟ كل هؤلاء الرّكاب؟ الصالة متكدسة عن آخرها، والمقاعد ممتلئة، والأرض مكسوة بالناس.

حول الجدران وحول الحوائط الزجاجية، حتى أمام الحمامات، رؤوس سوداء تراها من بعيد متراصّة، ورؤوس تعلوها اللفافات والعمائم، وهناك في أقصى الشمال وعلى مقربة من ممرات الخروج نساء كثيرات، كبار وبنات صغار وأطفال يتحركون في أماكن ضيقة نظرًا للزِّحام، وهدير أصواتهم يهيمن على المكان لا يمكن تمييزه، هدير يُسْمَع من كل مكان أم طنين نحل؟ دخل يتلمّس المكان الفارغ بين الأجساد ليضع فيه قدمه بحرص خشية أن يؤذي أحدًا، مرة يضع قدمه، ومرة يرمق الصالة المتكّدسة لآخرها، عشرات الناس بل المئات.

كانت الساعة حوالي الثالثة بعد الظهر يوم الخميس الثالث من محرم للعام الهجري ١٤٢٧، الثاني من فبراير سنة ٢٠٠٦ من الميلاد، زحام الناس وأنفاسهم قضوا تمامًا على البرد الشديد، وضع حقيبته بجوار أحد الشباب الجالس وحيدًا بعد أن ألقى عليه السلام وردّ الأخير، وقد وصل صوته يشق هدير الأصوات وقد وجد موضعًا لجسده أن يجلس، ثم قال هاتفًا:

ـ ما هذا الزحام؟

ردَّ الأخير:

ـ كل يوم هكذا، هذه الأيام عطلة نصف العام، والكل عائد لقضاء إجازته في مصر، عائلات ومدرسون وعمال؛ لذلك يكون هذا الزّحام.

قال ناصر، متسائلًا:

ـ وهؤلاء ستحملهم باخرة واحدة؟

ومن الممكن أن يوجد نفس عددهم لم يصلوا بعد وتحملهم.

هاله ذلك العدد الكبير، فاستأذن منه أن يذهب إلى الحمام، وأن ينتبه لحقيبته وأغراضه الأخرى التي كانت معه غير التي تم شحنها في صباح أمس، وصل إلى الحمامات بصعوبة يتخطى الرقاب والأقدام الممددة، طابور وزحام شديد، أخذ بعض الوقت حتى انتهى واشترى كوبين من الشاي في كأسين من الورق المُقَوّى وتحرك بهما في حذر، حتى وصل إلى الرجل ومدَّ يده بكوب الشاي إليه. جلس بجوار الرجل الذي أخرج الرجل تليفونًا محمولًا ليجري به اتصالًا، وبعد أن انتهى عرض على ناصر أن يستخدمه لو أراد الاتصال، الاتصال إذ أن ناصر في هذه الأثناء لم يكن يحمل تليفونًا محمولًا، تردد ناصر قليلًا، ثم قال:

ـ نعم أريد قليلًا.

فقال الرجل:

ـ لكن لا تطل، دقيقة أو دقيقتين، قالها الرجل مازحًا.

فأخرج الخطاب من حقيبته حيث الرقم واتصل فلم يجبه أحد، فعاود الاتصال، لترد عليه هناء الأخت الكبرى لسلمى التي قالت بدورها إنها ليست موجودة مما أحزنه وإن كان حزنًا مؤقتًا، فعمّا قريب سيلتقيان، أخبرته هناء أنها ذهبت إلى الحقل؛ لجلب بعض الخضروات، فأبلغها أنه على وشك ركوب الباخرة، ثم أنزل الهاتف من على أذنه، وسأل الرجل:

ـ متى نركب وتتحرك؟

فقال الرجل:

ـ خلال ساعتين أو أكثر قليلًا.

فأبلغها بالميعاد، على أن تبلغ سلمى وبدورها تبلغ أهله بذلك.

ေ

كانت سلمى تمشي بحذر شديد على جسور الأرض، لم يكن بيكاسو هو فقط رسَّامًا وموهوبًا أو ليوناردو دافينشي، حتى الفلاح المصري فنان في رسمه ولوحته الإبداعية، حينما يجهّز الأرض للزراعة، وقد تأهَّلت لرسم لوحة من أجمل لوحات الطبيعة منذ نثر البذور، فتبدأ الطبيعة في تغيير لونها الأسود إلى الأخضر المختلط بالسَّوادا شيئًا فشيئًا يكسوها الخضار الرائع، لوحة ما أجملها، وقد برز إطارها بمحصول آخر من جوانبها الأربع، أيُّ إبداع وأيُّ فن وأيُّ لوحة تظل قيد الرسم ستة أشهر، وقد مرت بكل هذه التغيرات، ترقبها الشمس ويحرسها القمر ويؤنسها النسيم.

ما زال صوت ناصر يتردد في أذنها، وقد أصبح على مقربة منها، يوم أو يومان تراها طويلة بعمرها الوردي الذي عاشته، رأت حبها الدافئ في لون ما تجمعه، ونعومة ملمسه وبلون الفراشات التي تتراقص أمامها، صفراء يزينها نقط سوداء منقوشة، وبيضاء بلون زهور المحصول التي لا تراه سوى زهور تملأ رئتيها بعبيرها الفوَّاح ونسمات الشتاء حبًا وسلامًا، وقد رشَّت السماء الأرض

رشًّا خفيفًا، فتعلقت قطرات المطر بأطراف الزروع، فأضفت عليه لون اللؤلؤ اللامع يبهر العقل، ويسعد العين وتنتشي به الروح، سعيدة فرحة منتظرة ومترقبة.

مشت تتهادى ترى أثر قدميها على التراب الناعم الذي رطَّبه المطر بزخّاته القليلة، كانت تنظر وراءها لأثر قدميها الصغيرتين، وصارت ترسم بقدميها طريقًا لأمنيات تتمنى أن تتحقق.

اقتربت الساعة من السادسة والنصف مساءً، ومن آخر مكان هناك عند الممرات نادى صوت عالٍ للاصطفاف، وما كاد أن ينتهي من كلامه حتى هبَّ الجميع النائم قبل الجالس، وقفوا منتصبين تتزاحم أقدامهم على المكان الفارغ الذي تطأه في أربع صفوف بجوار بعضها وصفٍّ خامس للنساء، لكنها لم تكفِ وبقي الكثير خارج هذه الصفوف المعوجّة غير المنتظمة.

هرج ومرج وأصوات متداخلة كل واحد يحمل حقيبة أو اثنتين بيده وعلى كتفه حتى على رأسه، يتزاحمون على مَنْ يحظى بخطوة في الصف للأمام، ينادون على بعضهم البعض في جماعات متعارفة، وناصر واقف في أحد الصفوف هذه وراء الرجل الذي تكلم معه حين وصل، صداقة مؤقتة ومعرفة لن تدوم إن تاه أحدهم عن الآخر، قال ناصر:

ـ متى يختمون جوازات هذه الجموع؟

ردَّ محمود الذي عرف اسمه فيما بعد:

ـ نصف ساعة وكل شيء ينتهي.

قال ناصر:

ـ أعتقد أكثر، ومن الممكن أن تزيد عن ساعة.

قال محمود:

ـ كما ذكرت لك، في العطلات يكون هذا الازدحام.

بعد نصف ساعة أو يزيد، جاءه الدور ومدَّ جوازه ليختم، وعيناه ترمق الختم بانتباه شديد، أخذ معه نفسًا عميقًا، ثم أزاحه من صدره محمَّلًا بأعباء كثيرة جثمت على صدره، ثم ترجَّل من حافلة داخل الميناء، واتجه ناحية الباخرة العملاقة الملاصقة للمرساة، وفي كل تحركاته يتبع محمود، وما إن دخل منها حتى وجد مدينة كبيرة من الشاحنات المصطفّة المحملة بالبضائع والسيارات الصغيرة المختلفة الأحجام والألوان، وقد اصطفت داخلها من أسفل جراجها حتى أعلاه، وظل ينظر، متسائلًا:

ـ كيف لها أن تحمل كل هذا؟

قبل أن ينادي عليه أحد المسؤولين ليصعد فوق الباخرة، وهو يصعد نفس الباخرة، نفس السلالم والساحة التي يفترشها الناس، والسطح من أعلاها، فتذكر رحلة قدومه عليها عندما جاء على سطحها، لكن الجو كان صيفًا يوم

جاء، أما الآن البرد شديد وشديد جدًا، لن يستطيع أن يجلس فوق السطح المكشوف.

قال محمود بعد أن استقر في مكان وسط الحشود:

ـ من الممكن أن نحجز من هنا كابينة للنوم نستريح فيها، ونضع فيها الحقائب التي نحملها، لكن يجب علينا فعل ذلك وجه السرعة لأن الأعداد ستزيد، وقد لا يمكننا حجز إحدى الغرف.

وافقه ناصر الرأي واقتنع بكلامه، وقضيا ما لا يقل عن الساعة من اللف على مكتب الحجز بداخلها أو المسؤول عن ذلك، وحتى دخول الكابينة لكبر حجم الباخرة، ومساحتها الهائلة وكثرة سلالم الطلوع والنزول الضيّق منها والمتسع قليلًا، إنها مدينة بأكملها تطفو فوق الماء، بها محلات ملابس ومحلات أدوات كهربائية ومفروشات، وإكسسوارات وكافتريات ومطاعم وتلفزيونات للمشاهدة وساحات كبيرة للجلوس.

أخيرًا وبعد مشقة واضعًا أمتعتهم داخل الكابينة التي يشاركهما فيها اثنان آخران، هتف ناصر:

ـ محمود أشعر بالجوع، أريد أن أتناول أيَّ شيء.

قال محمود:

ـ إذًا نذهب لمطعم الباخرة لنأكل هناك، فنحن الآن لدينا مكان نستريح فيه.

اصطفوا في طابور طويل حتى استطاعوا الحصول على وجبتين أبى محمود إلا أن يدفع حسابهما، حاولا أن يجلسا على كرسيين أو أي مكان ليأكلا طعامهما، لكن ليس هناك موضع قدم لهما، ورغم هذا الزحام إلا أن الوجوه تعلوها البهجة والابتسامة وخفة الظل، وجوه غير التي أتت حزينة رسمها الحزن بقلمه القاتم، قال محمود:

ـ نذهب ونأكل في الكابينة، ومن ثَمّ نستريح.

صعدا إلى الغرفة فكان الباب مغلقًا، دقّ الباب مرة ومرتين ففتح من بداخلها، وقد أبدى تذمّره من إزعاجه، وعندما رأى الطعام معهما هتف غاضبًا:

ـ هذا مكان للنوم وليس للأكل.

وبخفة دم محمود هتف قائلاً:

ـ وستأكل معنا أيضًا.

جلس الجميع وتعارفوا واقتسموا الأكل، كان محمود في بداية العقد الثالث من عمره، وقد قصَّ عليهم قصة زواجه من بنت عمه منذ سنتين، وجلس معها بعد زواجه أربعة شهور، ثم قال:

ـ لكن الحمد لله، ربنا أكرمني ببنت تشبه القمر، عمرها الآن سنة ونصف، كم أنا مشتاق لرؤيتها، لقد طال بي السفر عامين كاملين، لكن لابد للمسافر أن يعود، وها نحن عائدين.

وأخرج صورتها من حقيبة يده فشاهدوها، ثم هتف مازحًا:

ـ هل تعرف يا ناصر لو كنت كبيرًا أكثر كنت زوّجتك من ابنتي، ولكنك ما زلت صغيرًا.

ثم ضحكوا جميعًا، فأردف محمود:

ـ كنت أتمنى أن أسميها مريم لكن أمها سمتها أمل، وقالت البنات أنا أسميهم، أما الأولاد سمهم أنت.

كان حسن هو الثالث في نهاية عقده الرابع، قال لهم:

ـ أتعرفون، لي هنا سنة ونصف، تحملت مشقتها حتى الآن من أجل زواج ابنتي فقد تأجَّل حفل زفافها أكثر من مرة رغم وجود إخوتها الكبار وعمها الأكبر، ولكنها أبت أن يتم الزفاف دون وجودي، ودائما تردد: "لن أتزوج إلا وأبي موجودًا"، وقد حدَّد ميعاد زفافها الخميس القادم.

في هذه الأثناء بدأوا يشعرون بتحرك الباخرة التي بدأت تسلت يدها من كف الرصيف التي ترسي عليه، وأخذت طريقها إلى رحلتها، فنزل ثلاثتهم إلى ساحة الباخرة، كان المكان مكدَّسًا والزحام شديد، شربوا الشاي بعد أن طلبوه من كافتيريا الباخرة، قال حسن ثالثهما:

ـ أنا سأصعد للنوم، وأنتم ابقوا على راحتكم.

تجولا داخل الباخرة صعدوا السلالم، طوابق بعضها فوق بعض، نفس الزحام، تجد أم وقد جلست يحاوطها صغارها، وبدورها تطعمهم وتدثرهم من البرد، وعجوز ملتحفة بثوبها الأبيض مع ولدها عائدة من رحلة العمر رحلة العمرة

فَرِحَة مستبشرة وهي على متن رحلة العودة، بلهفة تنتظر أن يعانقها أحبابها ويهنؤوها. صعدا إلى السطح المليء بالناس، الكل يأخذ مكانًا يتَّقي البرد القارس، فقد كان الليل في بدايته يرسل موجات البرد تلفح أجسادهم لفحًا، قال ناصر:

ـ لقد تعبت، فلننزل إلى غرفتنا.

أجابه محمود:

ـ هل تعرف مكانها؟ يبدو أننا أضعنا مكانها.

قال ناصر:

ـ هي تحت، في الدور الثاني على الأغلب.

وأثناء نزولهم وجدوا جماعة تصلي، فمشوا إلى الحمامات في الممر الطويل حتى يتوضأوا، غسل ناصر وجهه، ونضح الماء بكفيه بنشوة، ثم تركه لينساب على جبينه وخدَّيه، ثم يلامس شفتيه ثم يتدلّى من أسفل لحيته كحبات لؤلؤ نسيمية هادئة في صباح باكر يشم فيها رائحة البيوت، ويرى فيها ملامح المساء حيث السكن والسكون، ويرى فيها صفحة النهار بكل سطورها، عمل دؤوب، وراحة بعد تعب.

صلَّوا معهم ثم نزلوا، والناس بين متدثّر بملابسه، وملتحف بأغطية معه حتى وصلا إلى غرفتهما، مرت ساعتان على تحرك الباخرة وقد تبقى الكثير، ست ساعات باقية يستطيعون الاستراحة خلالها، بيد أنهم لم يستريحوا حتى في

رحلات الحافلات طرقوا باب الكابينة ففتح لهم حسن ووجدوا رابعهم قد استفاق من نومه، فقال محمود:

ـ لقد طرقنا الباب طرقًا خفيفًا حتى لا نوقظك.

فأجابه:

ـ ليس صوتكم ولا طرق الباب، لكني أشم رائحة دخان.

قال حسن:

ـ يا أخي أنا معك بالكابينة، لم أشمُّ شيئًا.

فأردف محمود:

ـ قد أتينا من ساحات الباخرة وأدوارها، لم نر شيئًا ولم نشم شيئًا.

وبينما هم كذلك في جدالهم، بدأوا يشموا فعلًا رائحة حريق، وأكد ذلك حالة من الهرج والمرج خارج كبائن النوم، خرج ناصر مسرعًا واستوقف أحد الذين يجرون في الممر يسأله، فأجابه:

ـ يوجد حريق في الباخرة، هيا اصعد إلى السطح بسرعة.

عاد لأصحابه محمود وحسن، ونادى الرابع قائلًا:

ـ يقولون يجب أن نصعد إلى السطح، هيا بنا.

اتفقوا على ترك حقائبهم وأمتعتهم داخل الكابينة، إلا أن رابعهم جلب معه حقيبة، فبادره محمود:

ـ إلى أين تذهب بها؟ اتركها هنا.

فأجابه الرجل، وقد احتضنها كما يحتضن ولده:

ـ إنها تعب السنين وحصاد العمر.

فهتف ناصر الذي يقف على مقربة منهم:

ـ أيُّ عمر تقصد الذي مضى أم ما نجهله الآن.

صعدوا جميعًا إلى سطح الباخرة بصعوبة بالغة، الوجوه السعيدة تبدلت، والابتسامات العريضة اختفت، وفرحة العيون أصبحت ترصد وترقب، زحام شديد فوق السطح القوي، هو من يستطيع أن يقف ويتماسك، تدافع رهيب، وهنا على حافتها ضرب وتدافع، ماذا يحدث إنها صناديق لسترات النجاة كل يريدها، لم يأخذ الرجل واحدة أو اثنين بل أكثر، لا يفكر إلا في نجاته فقط.

تزاحم محمود ووصل إلى الصندوق، لكنه فارغًا ليس فيه شيء، رجع لناصر الذي يمشي وراءه لا يحاول فقدانه، وهتف قائلًا:

ـ لا يوجد سترات للنجاة، لقد فرغت.

وجد ناصر رجلًا يحمل أكثر من خمسة منها بتدافع، فوقف أمامه وقال له:

ـ أعطنا سترة أو اثنين.

أجابه الرجل:

ـ لا يمكنني إعطاؤك، فمعي أطفال.

ظل قريبًا من محمود، حافظوا على تواجدهم بجوار بعضهم، وقد تاه عنهم حسن ورابعهم، قال محمود أريد أن أرى مصدرَ الحريق، ومشى ناحية الأبواب

التي يأتي منها الدخان، نزل السلم وناصر لم يتركه، نزل وراءه يطلب منه الرجوع والدخان يتزايد لا تكاد ترى شيئًا، وما زالت الناس تهرب من الأسفل إلى أعلى السطح، عاد ناصر ولم يقاوم قوة الدخان، ظل مرابطًا عند فتحة نزول محمود ينتظر خروجه، وبينما هو كذلك، وإذا برجل أشيب نحيف الجسد تلف رأسه عمامته، وقد وضع يديه على كتفيّ ولده يتوسّل إليه أن يلبس سترة النجاة الوحيدة لديهما، وهو يقول:

ـ يا ولدي العمر ما زال أمامك، البسها واذهب حيث تذهب الناس، أنا لا أريد شيئًا من الدنيا.

والولد ينكبُّ على يديّ أبيه يقبلها، ويتوسل هو الآخر أن يقبل هو بلبس السترة، والأب يرفض إلا أن يلبسها ولده، قائلًا:

ـ أوصيك فقط بأمك وأخوتك الصغار إن قدر لك الله البقاء.

الدخان يلف المكان، والناس تختنق وعلى سطح الباخرة يلفح الزمهرير الأجساد المرتعشة خوفًا وفزعًا ورعبًا، صرخات الأطفال وصيحات الكبار وذهول الأمهات، إنه الهلاك حتمًا لا مناص، مالت أكثر على أحد جنبيها، نودي على الناس أن يذهبوا إلى الناحية العكسية حتى تستقر، كيف لمسن أن يفعل أو عجوز أن تتحرك أو طفل تضمه أمه على صدرها، تتمنى لو تضحي بنفسها من أجل بقائه قيد الحياة، وناصر يجري يمينًا ويسارًا وسط الزحام القوي، لم يذهب

وظل يراقب صديقه متى يخرج من وسط جحيم الدخان القاتل؟ ومن ورائه صوت يناديه فالتفت.. إنه محمود، لا يدري متى خرج ولا كيف؟ قال محمود: الدخان بالأسفل رهيب، لقد سمعت أصوات تصرخ في أماكن الغرف السفلية مغلقة الأبواب عليهم، كدت أختنق فصعدت، لكنهم بالأسفل يصارعون الموت.

راحوا وسط الزحام عكس جهة ميل الباخرة، استطاعوا التشبث بسورها الحديدي، فمالت أكثر، الصرخات تعلو والبكاء والعويل، ألسنة اللهب تتصاعد من فتحاتها المائلة، تتطاير معها الأبواب والشبابيك، صوت قرقعة الحديد يتكسر ويتفكك، في دقائق معدودة مالت على شقها الأيمن، وكل من على ظهرها قذفتهم إلى البحر، أكوام من البشر تكدّسوا فوق بعضهم رغم أن معظمهم يرتدون سترات النجاة، انكبّوا في مكان واحد يصعدون كلّا فوق الآخر، صاروا يصارعون الأمواج، أي مصير هذا وأي جحيم يواجهون؟ والموت قد كشَّر عن أنيابه ونشب مخالبه، كل الطرق تؤدي إلى الموت، إما حرقًا بداخلها لمن لم يسعفه الخروج، ومن مات اختناقًا بالدخان القاتل، ومن فلت منهما يواجه مخالب أقوى وأشد فتكًا، يطأون بعضهم بعضًا، مات من في الأسفل في ظل الأمواج العاتية، والبرد الشديد وأسماك القرش القاتلة، يغلف كل هذا ظلمة الليل، وظلمة البحر وظلمة الدخان الذي مازال يلف المكان، ظلمات فوقها فوق بعض.

ما زالت نائمة على شقها الأيمن، والمئات فوق بعضهم متكدسون في مكان واحد بجوارها، لم تغرق بكاملها وعلى حافة قعرها يتشبث الكثيرون، ناصر ومحمود من هؤلاء لكنهما بعيدان عن بعضهما، من يخرج من البحر ويصعد على الأبواب والشبابيك النائمة في الماء، يأتي الموج ويجرفه إلى البحر ثانية من الاتجاهين.

سمع دويّ الانفجارات ثانية، وألسنة اللَّهب تهشّم الأبواب والشبابيك تهشيمًا تتطاير من قوة الانفجار، من يتشبث بها مات حرقًا، صار الظلام الحالك ظهرًا تسطع فيه الشمس من قوة النيران، مما جعل السفينة تطفو على السطح، وتستقر بعضًا من الوقت، كل هذا يرقبه ناصر المتشبث في أعمدتها على حافة قعرها وقد استقر على بطنه.

صراخ صراخ في البحر من كل الاتجاهات، المئات يصارعون الموت المحقق هنا، كل أنواع الموت متاحة، حرقًا أو اختناقًا أو غرقًا أو تدافع، يغرقك صديقك الذي لا يراك، أو قرش يلتهمك، وما هي إلا دقائق حتى انكبّت الباخرة على وجهها كاملة، وقعرها فقط يظهر فوق الماء، ومراوح الدفع عالية، والمتشبثون بها صاروا على قعرها الزلج نظرًا لغرقها ببطء مما مكنهم من ذلك.

استقر ناصر عليها مع آخرين، ظلام حالك والموج يضربهم من كل مكان، سمع ناصر أحد المتواجدين معه:

لابد أن نغادر ظهرها، فعند غرقها ستسحب كل من حولها إلى الأسفل.

كانوا يشعرون بحرارة جسمها ساخنًا ملتهبًا من شدة الانفجارات، والحريق الداخلي حتى إن الماء أصبح حولها ساخن جدًا، لكن ناصر إلى الآن ليس لديه سترة نجاة، ولابد من مغادرة مكانه، فقال:

ـ أشهد أن لا إله الا الله، وأن محمدًا رسول الله.

ثم قذف بنفسه في البحر باتجاه الأنوار والكشافات، كيف لك أن تصارع تلك الأمواج العالية حتى ولو كنت سبَّاحًا، لكن لو ظل عليها فهو الموت المؤكد، سكتت الأصوات إلا أصوات الموج الهائج، كل ما كان يفعله هو أن يبقى فوق سطح الماء، ويحاول جاهدًا الابتعاد عن مكان الغرق تحاشيًا للدوامة التي ستحدثها، ولكن أين يهرب من مخالب الموت؟ كلما حمله الموج عاليًا، رأى إنارة قارب ظن أنه قريب فيحاول السباحة ناحيته فيراه بعيدًا ويتملّكه اليأس، ومرة يراه قريبًا ويحدوه الأمل، ابتعد قليلًا عن مكان الباخرة، لكنه يرى المراوح ما زالت طافية على السطح، والقارب لم يعد قريبًا، لقد ابتعد، ساعدته قوة بنيته ومحاولاته المستمرة أن تبقيه طافيًا، لكن يتقاذفه الموج المجنون بارتفاعاته الشاهقة التي تتخطى ستة وسبعة أمتار، ارتطمت يده بشيء فأمسك به، ولكنه ليس قاربًا ولا سترة نجاة ولا حتى لوح خشبي من حطام الباخرة، كانت جثة طافية على السطح ترتدي سترة نجاة، لقد مات ولديه سترة النجاة، لم تبعد عنه الموت، ولم تخلصه من مخالبه السوداء، تشبث بها ومرة أخرى يرى القارب ويحاول الاقتراب منه، وهو لم يفلت الجثة من يده، لقد أصبحت طوق نجاته،

لكنها ليست الوحيدة التي صادفته، جثث كثيرة يقذفها الموج حوله إذ لم يرها، هؤلاء من قذفتهم الباخرة أثناء ميلها الأخير دفعة واحدة، هرب منه القارب، لم يعد يراه وهو يمسك في طوق نجاته، لم يفلتها تاركًا نفسه لقدره لا يعرف له وجهة ولا وقت.

لم يستمر في مقاومة الموج واستسلم له، يرميه حيث أراد وحيث شاء، وقد أسدل الليل ستائره القاتمة، صار الليل حالكَ السَّواد، القمر غائب والنجوم مستترة لا تضيء، ترى بعيونها ما يحدث وتترقب النهاية دون تدخل، لكنها ستظل شاهدة على فاجعة الموت والسلام الزائف الذي أطلق على اسم تلك الرحلة.. (رحلة الموت)، فمن مات فقد مات مرة، أما من بق فهو سيموت ألف مرة، لا صوت يعلو فوق صوت الأمواج العاتية، وكأنها كانت تنتظر فريستها لتلتهمها بِنَهَم، ابتلعت ما استطاعت وها هي تبث رعبها في قلوب من يصارعون من أجل البقاء، هلع ورعب يخلع القلوب، يأس يحاوطهم وذعر يتملكهم، لا مناص من الموت بمخالبه المرعبة التي نشبت في قلوبهم..

ᴥ

ألقت سلمى باللوم على أختها التي أبت أن تذهب للحقل بدلًا منها، ومازالت تكب جمَّ غضبها عليها، وهناء تعلو ضحكاتها المستفزة مما جعلها تترك لها الغرفة لكيلا تسمع المزيد من سخريتها عليها، وقد قامت بطريقتها بإبلاغ أم ناصر بوصوله اليوم أو غدٍ على أكثر تقدير، تأهب البيتان لاستقباله بعد أن

بذلت أمه كلَّ ما في وسعها خلال السنوات الثلاث الماضية على أن تجعل من البيت ما يليق بعريس ينتظر ليلة زفافه بفارغ الصبر من بناء وتشطيب وتزيين البيت حسب ما لديها من إمكانيات وفرش جديدة.

وقد أبلغت أهل العروس أنه سيتم الزفاف بعد وصول ولدها، لم تخبره بكل هذا لكنها كانت عازمة عليه، فبدأت في ترتيب البيت وتجهيز أشهى الأطعمة التي يحبها، في هذه الليلة لم تنم حتى أنها خرجت في هذا البرد الشديد تمشي في الشوارع الزلجة إلى أول الطريق، ترسل ناظريها إن كانت هناك سيارة تضرب بنورها الطريق من بعيد، كررت ذلك مرات ثم عادت إلى البيت، وقد هاجمتها الكلاب ليلًا مرارًا، ولكنها لم تعبأ بهم حتى وصلت إلى البيت ثانية.

كلما رتبت مقعدًا اختلّ، أو كرسيا وقع من مكانه ولم يستقر، حتى قِدْرات الطعام تنفلت من بين يديها، قضت ليلة طويلة بقلب قلق وفكر شارد وتوتر لم يسبق لها، ما أصعب الانتظار، الانتظار سكين تشق القلب وتدعه ينزف قطرة قطرة مع كل دقه منه، الانتظار موت بطيء إما اللقاء أو الموت، إنه قلب أم طال انتظار ولدها لطالما اشتاقت إليه، تودُّ لو يدها تلمس خديه وترمق عينيه بملء ناظريها أو تتحسسه واقفًا أمامها، كانت تشمّه في ملابسه التي لم تغسل بعضها يومًا بعدما سافر حتى تتبقى رائحة عرقه فيها، فتهيم بها على وجهها، إن السنوات الثلاث التي مضت عمر، وما تنتظره الآن عمر آخر غيره، كانت

تعرف أنه سيصل في هذا الشهر لكن دون تحديد، أما وإن تحدد يوم مجيئه فهو الموت البطيء انتظارًا.

في البيت الآخر عروس فَرِحَة سعيدة، ومرة أخرى قلقة متوجسة، وقفت حائرة أمام خزانة ملابسها أيًّا منها تختار لتلبسه يوم لقائه، تساعدها هناء مرة وتسخر من حيرتها أخرى، الطرحة يجب أن تناسب الفستان، قالت سلمى:

ـ ليس لدينا وقت لأشتري غيرها تناسب هذا الفستان.

قالت أختها:

ـ لكن صديقتك عندها طرحة تشبه فستانك، نستعيرها منها في ذلك اليوم.

كان هذا مساء ذلك اليوم، لم تنم في تلك الليلة نومًا طبيعيًا، دائمة الفكر، شاردة تغفو عيناها ثم تستفيق.

كيف يكون اللقاء؟ كيف لي أن أرفع عيني وأراه؟ وكم تستمر نظرتي إليه؟ هل سأستطيع فعل ذلك؟ وهل سيساعدني لساني أن أنطق بكلامي، أم يختفي وقتها من حلقي وأبتلع كلماتي؟

لقد بنى لها الحب سفينة كبيرة تبحر في قلبها تبحر نحو حبيب لم تره، ونسج لها من الأمل شراعًا، ومن اللقاء شاطئ ترسو عليه سفينة حبها، لكن انتظارها كان كموجٍ عاتٍ يكاد يعصف بسفينتها المتكدسة بالمشاعر والمملؤة بالشوق والمحملة بالحب، كانت تتحاشاه بصبرها وتفاؤلها الحذر.

بينما هو في بحر يصارعه، وموج يتلاعب به كدُمْيَة في يد طفل يطرحها أنَّى شاء ووقتما شاء، لاح الصباح فدائمًا ما يأتي الصباح بالخير والنور، الشمس المشرقة والوجوه المبتسمة، أما هذا الصباح فقد كان غير كل الصباحات، ففي غياهب البحر لم يأتِ بكل هذا بل أتى بالموت الحقيقي، كان الظلام الدَّامس لا يظهر شيئًا من أهوال ما يرى، ولكن مع نور الصباح، وبينما هو متشبث في هذه الجثة بسترة النجاة التي تلفُّها رأى نفسه عاليًا، وكأنه صعد فوق رأس جبل ثم يهوي به الموج إلى وادٍ سحيق، والموج على جانبيه جبال شاهقة، صار النور مصدرًا لفزعه وخوفه ورعبه، مر من أمام عينيه كل شريط حياته منذ طفولته كأنه يراه فيلمًا يعرض على صفحات الماء، مع كل موجةٍ صفحةٌ تُقلب ثم تأتي ما بعدها ثم التي تليها.

وإن دوَّنت لحياته كتابًا ستنتهي صفحاتها، فهل هذه صفحته الأخيرة من كتاب حياته؟ تذكر أمه، وتمنَّى لو تصل منه رسالة إليها تطمئنها أنه بخير، وأنه على قيد الحياة، تمنَّى لو قبَّل رأسها قبل أن تفارقه الروح، ولكنه لم يحظَ بهذا الشرف وهذا المنال، أن يجثو باكيًا تحت قدميها، يتمنى لو تسامحه إن مات لما يسببه لها من ألم وغصة ومرارة ترافقها ما حيت، فتموت وهي على قيد الحياة.

من يبلغ أمي أنه ما كان بيدي أن أسبب لها ذلك الألم بموتي، ولكنها الأقدار التي فرقتنا وأبت ألا نلتقي، سامحيني يا أمي على موتي، فقد حاولت جاهدًا أن أصلك، وما زلت أجاهد، فهل يبقيني قدري.

تذكر من ودَّعه يوم سفره، وكيف نزّت عيناه بالدموع العصية على الانسياب وعناقهم الحار له وكأنه اللقاء الأخير، مرَّت الثلاث سنوات لحظات في مشاهد متتالية، حتى صديقه كريشنا تذكر موته في عاصفة الرمال التي لا تختلف عن عاصفة الماء، وإن كانت أهون إذ كان وقتها على أرض يابسة صلبة تحمله، يقف وقت شاء ويتحرك وقت شاء، الصحراء لم تبتلعه وأبت إلا أن تبقيه حيًا؛ ليذهب إلى أهله ووطنه، فهل صُفِّدَت أبواب وطنه عن استقباله حيًّا، وهل تستقبله جثة إن لقي حتفه، أم تتقاسمه أسماك البحر إن صار هامدًا كطوق نجاته المتشبث به؟

أي غربة تلك التي عاشها في حياته؟ لقد عاش الغربة ظلمات فوقها فوق بعض، والآن أحلكُهَا، وبينما هو كذلك هاج البحر الغاضب وكأنه رفض حتى استقبالهم في بطنه، فنفر منهم أحياءً كانوا أو أمواتًا، وتعالت الأمواج أكثر اصطفاقًا، يتلاطم بعضها بعضًا كأنها أرادت أن تطبق على من فيها.

مرت الساعات الطوال حتى جاء الغروب الموحش، ويا لها من وحشة في قلبه، عاشها طفلًا وعاشها غريبًا والآن يعيشها وحيدًا بين شاهقات الأمواج تلجَّه لجًّا وتلطمه لطمًا، تملَّكه اليأس أن ينجو، وأصبح ينتظر الموت في أيِّ لحظة، حتى إنه صار يحسد طوق نجاته على ما هو فيه، قائلًا بعد أن أدار وجهه له:

ـ محدقًا في وجهه الأبيض، أنت مُت مرة وانتهيت هنيئًا لك بموتتك، فأنت الآن في ملكوت آخر، ربما في نعيم تعيشه لا يراه سواك شهيدًا عند ربك، أما أنا فأموت ألف مرة في كل لحظة.

مع دخول الليل كان الموج يزأر زئير الأسود، ومخالبه سوداء بسواد الليل، لمع كشَّاف قريب منه في عينه المتأججة ملحًا، أغمضها ثم فتحها كي يتأكد أنه قارب بجواره قد يكون قريبًا منذ فترة، ولكن الموج كان يحول بينه وبين رؤيته، هل يشق صوته صوت الأمواج ويصلهم، فيسمعوه إن ناداهم أم لديه القدرة على أن يسبح باتجاههم، سبح باتجاههم وكلما اقترب منهم ملأه الأمل، وكلما أبعده الموج تملَّكه اليأس، ظل يسبح بقوة حتى وصل إليهم، وها هي يده تقبض على الحبل المتدلي من القارب، عزَّ عليه أن يترك طوق نجاته تلك الجثة التي احتضنها طيلة هذه الساعات رفيقة البحر، فربطها في حبل قارب مغلق من جوانبه إلا جهتان مفتوحتان، دار نحو إحداهما، ولكن من يجلسون على حافة القارب يغلقون الفتحة كاملة، فضرب بيده على ظهر من يجلس فلم يعيره انتباهه، وهو ممسك بالقارب من جوانبه.

لم يعد يشعر بجسده، حيٌّ هو أم ميت؟ فقط عيناه تراقب لكنه الآن أفضل حالًا من ليلة أمس وطيلة اليوم، الآن معه أناس يراهم ويسمعهم، حاول مرات ومرات أن يسمعه من يجلس على حافة القارب، وأن يأخذ بيده ويصعده إلى القارب، ولكن الأخير لم يلتفت إليه.

بعد هدوء نسبي عاودت الأمواج حملاتها من جديد وتوالت ضرباتها، تُرى أكانت تمهلهم كي يخرجوا من البحر؟ صارت تضرب القارب من جوانبه، تحمله إلى أعلى وهو يقبض بيديه كاملة على حافة القارب، يصعد معه ويهوي به، تضرب الأمواج ظهره فيرتطم في القارب المطَّاطي، ساعات طوال وهم على هذا الحال الذي لا يتبدل، مرة يسمع تكبيرًا من داخل القارب، ومرة صراخ وعويل وينقطع الصوت عندما تغوص رأسه في الماء، هل كان طوق نجاته أفضل حالًا من الآن، انتصف الليل ولا جديد.

شاع الخبر في عموم البلاد وتناقلته وسائل الإعلام، بلغ الخبر البلاد الكبرى والنجوع والكفور والقرى، حالة من الحزن عمَّت البلاد، ألف وخمسمائة بيت كان يتأهب لاستقبال غائب أو أكثر، هبَّ أهلوهم وذووهم، أصحاب وأحباب ومعارف وأصدقاء إلى الميناء المنوط بوصولهم لالتقاط خبر واحد عنهم، وصل الخبر إلى بيت سلمى، علمت أختها بالخبر ونقلته إلى أمها بدورها التي ضربت صدرها بيدها، وقد وقعت الحسرة في قلبها وكتمت صوتها وعويلها، وكأنها بين أمرين أن تصدق فتندب حزنًا على هذا الشاب، وإن لم يكن عريسًا لابنتها، وبين الصبر المميت حتى تستوضح الأمر لعله خبر كاذب، وقد طلبت من ابنتها كتمانه حتى الصباح.

أما تلك الأم المسكينة التي لم تعرف للزاد طعمًا، ولا جرح الماء ريقها منذ أن عرفت أن ولدها في الطريق إليها، وكأن جوارحها كلها صَامَتْ، حتى يصل

نور عيونها الذي لا ترى غيره، وأذنها لا تسمع سواه، وقلبها لا ينبض إلا حبًا وعطفًا لملاقاته، فمن يخبرها هذا الخبر المشؤم وهذه الفاجعة المميتة؟ من يستطيع أن يواجهها بخبر كهذا؟ كيف ينطق لسانه أمامها بمثل هذا الخبر؟

أما هي فليس عندها وسيلة لمعرفة الأخبار أو غيرها سوى مذياع قديم، وقد حزمته من منتصفه بربطة من قماش كانت يومًا غطاء لرأسها متصل مقبسه بالكهرباء، إن وجدت الكهرباء سمعت صوته، وإن صمت إذًا الكهرباء قد قطعت، يصدح بإذاعة القرآن الكريم ليل نهار، فكيف لها أن تعرف.

حلَّت الليلة الثانية ولم تنم، وهو لم يصل فخرجت في الليل كما فعلت ليلة البارحة ترمق الطريق المظلم، لعلها تجد سيارة آتية تشق ظلمة الليل، وظلمة قلبها ووحشة غربتها التي تعيشها في كنف بيتها دون ولدها، لكن لا جديد، فعادت وقد زادها الوقت قلقًا وريبة.

شعرت بثقل كبير يطبق على صدرها، وكأنه يحمل جبالًا رواسي، أمسكت صدرها في خوف ورعب، وأنفاسها تتلاحق في صعوبة فهتفت بقلب ملهوف وهي تدور في أرجاء البيت وكأنها تبحث عمَّن يطمئن قلبها ويسكن روعها:

ـ ولدي.....

إنه قلب الأم التي تشعر بولدها مهما باعدت بينهما المسافات، قلبها الذي ينبض بنبضه، وروحها التي تتعلق بروحه، تُرى من يعيد الطمأنينة إلى قلب أم يموت شوقًا وقلقًا وخوفًا؟

خطى الليل نصفه الأول، وبدأت تنفلت الساعات الأولى من نصفه الثاني، والقارب يترنَّح بعد أن ترك مكانه، ودار الناحية الأخرى التي ربط فيها الجثة، فكَّر لو فكها واحتضنها كما كان، إذ لا جدوى من القارب إن لم يصعد عليه، خارت قوته ووهنت صلابته مع الساعات الأولى للصباح، لا يستطيع أن يرفع يده ليطلب المساعدة، إذ أنهم في الليل لم يروه إلا من أبى أن يحمله.

شعر أنها النهاية فقد عبَّأَ من الماء ما يميته، انفلتت يده الميتة التي صار لا يشعر بها، حاول أن يفك صديقه الميت لعله يرافقه في مثواه الأخير، لم يتمكن من ذلك، وبيده التي تلوح أشار للقارب الذي اختفى عنه في ظلمات البحر، فألقى إليه نظرة أخيرة، ثم حال بينهما الموج قبل أن تغمض عيناه للأبد.

حال الموج بينه وبين أن يقبّل يد أم طال انتظارها حتى أصبح كالنار تأكل قلبها المتوقد شوقًا إليه.

حال بينه وبين حب عمره، وأول من نبض القلب من أجلها.

حال بينه وبين عروس تمنت ورسمت وتخيلت وحلمت، وأمل ضاع وباع وتخلى.

حال بينه وبين وطن تمنى لو تطأ ترابه قدماه، وتكتحل برؤياه عيناه، ويمتلئ بهوائه صدره...

حال بينه الموج وبين أن ينول شرف نهاية تليق بعذاباته يتوارى فيها تحت ثرى ترابه..

حال بينه الموج وبين الحياة التي طالما تمناها، فغاب بين الأمواج ليلقى مصيره المحتوم، ولتتوقف أنفاسه اليائسة، ويسكن قلبه المتعب من قسوة غربة لا تنتهي، ويرتاح جسده أخيرًا بعد أن أضناه التعب.

غرق ركاب تلك الباخرة المنكوبة ليستقروا بجوارها، إلا من كتبت لهم النجاة وهم قليلون، وكأنها أبت إلا أن تحتضنهم أموات كما احتضنتهم فوق ظهرها أحياء، ولسان حالها يقول:

ـ لا حاجة لكم بي، لقد تحمّلت الكثير، كم من الأعوام وأنا صامتة لا أبوح بشيء ولم أتكلم؟ لم يسألني أحد ولم أشكُ لأحد، كم من الأعباء والهموم والأحزان تحملت؟ حملت أممًا بائسة، جوعى يعتصرهم الفقر والقحط، وقد ضاقت بهم بلادهم ذرعًا، ثم عادوا سالمين غانمين.

وأقوام حملتهم بأحلامهم وأمانيهم خائفين مترددين حائرين، فعبرت بهم حيث أرادوا، ثم عدت وأنا أحمل سعادتهم وأحلامهم محققة..

وكم من ذكريات دوَّنوها على ظهري، وكتبوها على متني..

ناموا في جوفي واطمأنوا في بطني، كنت كأم تحمل أطفالها تفرح بفرحهم وتئن إن تعبوا.

طيلة هذه السنوات وأنا أعبر من شاطئ لآخر أدوّن في ذاكرتي مآسيهم، أحمل أحزانهم وهمومهم التي أثقلتني، وأنا أئن في صمت.

أنا ما غرقت في البحر، لكن غرقت في أحزانهم التي يضيق بها البحر..

لم يثقلوني ولم تثقلني أمتعتهم، بل أثقلني هول ما تحمل صدورهم..

ما بين أب فارق فلذات أكباده وتغرَّب لسنوات ثم عاد صِفْرَ اليدين بعدما ضاقت به الأرض ذرعًا، فأبى وطنه أن يحتضنه ولفظه، وأرض أَبَتْ أن تفك كفها فيصافحها.

وبين شاب في عمر الزهور رسم حلمه عاليًا بارتفاع الصواري، ثم غاصت أحلامه كما غاصت صواريّ..

أنا أم بمعنى أثقلتها هموم بنيها، أنا لست السلام ٩٨، بل أنا السلام الأبدي...

أنا لست رقمًا بل كل الأرقام...

لا تلوموني ولا تتحسّروا عليهم، غرقت وهم في أحشائي فدعوني وأولادي...

يا لوعتي على من فقدت من أبنائي..

فلذات أكبادي هل لكم من بقاء؟

ليتهم ما نزعوكم من بين أحشائي..

قلبي وقرة عيني دائي ودوائي..

مات مَنْ فرَّ، ومن في جوفي من الأحياء..

فليشهد عليّ البحر، ولتشهد عليّ سمائي..

أنا ما غرقت وحدي بل تمسكوا بردائي..

يا لوعتي!! مَنْ يطمئن قلبي ويأتيني بالأنباء؟

أنا ما غيَّرت وجهتي، بل طفى من فوقي الماء..

عجوز في الزمان وعظامها قبل الغرق أشلاء..
أَبَتْ أن تترك حِمْلها لبحر هادر وبرد شتاء..
فلا تنعوني، فقد عشت عمري من الألف للياء..
بل نوحوا وانعوا فلذاتي قضوا تحت الماء..

تمت

ماهر حفني

إهداء خاص

إلى الأستاذة/ ميرفت صلاح التي كانت ملهمة لي وهي وراء هذا العمل.. خالص التحية والتقدير

شكر خاص إلى زوجتي وأولادي منة ومي ومحمد ماهر.

وأخصّ بالشكر أختي العزيزة سناء حفني.

والشكر للأصدقاء...

الأستاذ/ علي أبو ناجي، عبد الرحمن رمضان، أحمد المتولي، أمير حسن، سليم محمد، أروى محمد، ملك محمد، إسراء الحريري.

●●●

الفؤاد
للنشر و التوزيع